كلية الكوت الجامعة
مركز البحوث والدراسات والنشر

ISBN: 978-9922-612-29-4

# نصف قرن في ذاكرتي

## (لمحات من مُذكّرات مواطن)

تأليف

الدكتور علي زوين

2021

اسم الكتاب : نصف قرن في ذاكرتي

تأليف : أ. د. علي زوين

جنس الكتاب : مُذكّرات

المطبعة : مطبعة الرفاه / بغداد

سنة الطبع : ٢٠٢١

الناشر : مركز البحوث والدراسات والنشر

كلية الكوت الجامعة

تصميم الغلاف : رائد مهند امير

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٢٤٩ لسنة ٢٠٢١

مطبعة الرفاه 07902823204

# الإهـــــداء

الكتاب خير ما يُهدى الى الأحباب في خريف العمر ، ولذلك أُهدي هذه المذكرات الى :

- زوجتي العزيزة .
- وأولادي الأعزة : زهراء ، ونور ، وأحمد
- وحفدائي الأحبة : شَدَن ، ودِيمة ، ولَيان ، ورَوان ، وكوثر ، وعبد الحميد ، وعلي

## مقدمة :

المذكرات وتدوينها شأن من شؤون الزعماء والقادة والحكماء والعلماء وذوي المراتب العليا في الحكومات والدول . يذكرون فيها ما رأوه وارتأوه في مسير حياتهم الخاصة والعامة ومصيرها، ويختلط فيها الفِجّ والناضج والقمح والعَوْسَج والأصيل والبديل والأخطاء والأغلاط ، ذلك كله مصبوباً في إنا (الخبر) الذي يحتمل الصدق والكذب. وفيها ما فيها من الأسباب والمُسبّبات والتجارب والعِبَر والمفيد والمستفيد ترقيعاً للدنيا التي ما فتئت ترتق فتقاً بعد فَتْق الى أن يحين أجل الآدمي المبتلى بها مهما كانت عقيدته وأهواؤه وأغراضه، إذ إن البشرية اختلفت في كل أمر إلا الموت الذي قهر الله به عباده رغماً للأنوف، آمن الخلق بذلك أو لم يؤمنوا ؛ فالموت هو الحقيقة المطلقة المشاهدة بالعِيان .

ولم أطلع فيما اطلعت عليه من المذكرات أن أحداً من العامة والمغمورين دوّن صحيفة أو رسالة أو كتاباً في هذا الموضوع ، فغلبني الظن أن ابتدع بدعة خير فأكتب ما رأيته وسمعته وتفحصته أو توجسته من القضايا والحوادث طوال نصف قرن مضى ، أي من عقد الخمسينيات في القرن المنصرم الى أوائل هذا القرن استكمالاً لما أراه صالحاً للقول . وذكرت أيضاً فيما ذكرت ما عَنّ لي من شؤوني الخاصة ومشاهداتي ومشاعري بغض النظر عن أهمية الموضوع ؛ فالغالب في هذا النهج أن تكون العواطف

والانفعالات وانصراف الذهن ومخزون الذاكرة هي الفيصل في وصف الأهمية ، ولذلك دوّنت ما يراه غيري حدثاً عابراً لا مسوغ لبيانه وهو عندي قد يفوق موت ملك أو أمير أو وزير...

ولعل بدعتي هذه تفتح سبيلاً للأخرين ، لأن ما أراه قد يكون في بعض الأحوال – وأنا من العامة – أكثر صدقاً مما يراه أهل السلطة والجاه والمقام.

ورتبت موضوع الكُتيّب هذا على عنوانات مختارات للمداخل ، فيها إيجاز للموضوع . وأسأل الله تعالى السداد في القول والعمل وحسن العاقبة ، وهو كافٍ عن غيره ولا كافي عنه .

# السيد محمد الصدر ( الى مثواه الأخير )

توفي السيد محمد الصدر في الخمسينيات من القرن الماضي ، وهو أحد رؤساء الوزراء في العهد الملكي ، وكانت تربطه بالبلاد الملكي وشائج قوية متواصلة ، لأنه عرف في الأوساط السياسية بأنه أحد ( عرّابي) النظام الملكي في العراق ، وكنت في ذلك الحين صبياً صغيراً إذ اصطحبني جدي ( السيد حسن آل زوين ) آخذاً بيدي الى الشارع الترابي المؤدي الى الباب المسمى بـ (باب المراد) في الحرم الكاظمي. وكان الشارع حينذاك تجاه الباب وعن يمينه ( سوق القصابين) ، وعن شماله سوق يكثر فيها باعة الحلوى والجوّالون ، وباعة ما يستخلص من اللبن الحليب كالجبن والزبد و ( القشطة) التي تسمى باللهجة البغدادية بـ (القيمر) ، وتلفظ القاف في الكلمة جيماً قاهرية ، وغالباً ما تخصص الكلمة فيقال ( قيمر عرب).

كنت صغيراً لا تعلق بذاكرتي إلا ما يجلب انتباهي ؛ فرأيت جمعاً غفيراً من الناس على جانبي الشارع ، وقد اكتظ بهم من أوله الى آخره واقفين واجمين ينظرون الى الموكب الآتي من بعيد ، وهو يمشي الهوينا ليصل إليهم ، فوصل الموكب حيث أقف مع جدي ، ورأيت جنازة مجلّلة بالسواد مرفوعة على أذرع الرجال يتعادها الواحد تلو الآخر ، وفي أمامهم مؤذن يهلّل ويكبّر ويردد في مكبرة الصوت العبارات المألوفه في التشييع : ( لا إله إلا الله الحليم الكريم ... الخ) ، ومن وراء الجنازة رجال معروفون لغيري

بسيماهم ، يتوسطهم رجل نحيف البنية ، طويل القامة، على رأسه ما يشبه (القُبّعة) بيضاء طويلة في رأسها فتائل متدلية من الأشرطة البيضاء ، وعلى عينيه نظّارة سوداء مُعْتِمة دائرية الشكل رقيقة العضدين ، وعلمت فيها بعد حينما أدركت وعرفت بعض الأسماء ومسمياتها أن هذا الرجل الذي أثار فضولي وانتباهي معجباً به ومتعجباً منه دون غيره من أصحاب ( السدائر) و(العمائم) و (الكشيدات) هو الأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق.

# العربة الملكية

كان جسر خشبي يربط مدينة الكاظمية بمدينة الأعظمية قبل إنشاء ما سمي بـ( جسر الأئمة) . وهذا الجسر الخشبي من (عجائب التخلف) السبع في العالم ، إذ قُطِرت الدُّوَب:( جمع دُوبة بالعامية البغدادية ) في النهر ، وهي زوارق من حديد، الواحدة تلو الأخرى مربوطة بسلاسل ، ورُصّت عليها الألواح المتموجة مع تموج مياه دجلة، ودجلة في ذلك الزمان ثَرّة وثريّة صاخبة بالماء. وكان على سيارات النقل الخشبية التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان في الانتقال من مكان الى آخر أن تعبر هذا الجسر مفوضة أمر راكبيها الى الله تعالى؛ وقد حصل في مرات عديدة أن انقطعت السلاسل التي تربط (الدوب) وانفصل الجسر ( المُلصّق لا المُعلّق) الى نصفين : أحدهما ثابت في مكانه ، والآخر يتجه جنوباً مع جريان النهر ، وسمعت عن حوادث وقعت لبعض العابرين، إذ ماتوا غرقاً بعد سقوط السيارة ( المُخشّبة) في الماء .

وكنت – حينها - صبياً أقترب من أكون غلاماً ، وقد عبرت يوماً راكباً هذه السيارة العجيبة ومعي حشد من الناس اكتظت بهم المقاعد الخشبية ونحن نترنح في عبورنا الجسر حتى عبرناه، وكأننا عبرنا سلاسل جبلية وعرة المسالك، واتجهنا الى ( باب المعظم) وهو نهاية المسير. مرت السيارة متوقفة قليلاً بـ( البلاط الملكي) الذي كان يقع على يمين المتجه الى باب

المعظم ، والتفت من خلال الشباك الخشبي الصغير الى جمع قليل من الحرس الملكي بزيهم الرسمي الأحمر بـ (قبعاتهم) الطويلة على النمط البريطاني وهم يقفون أمام عربة بيضاء مُذهّبة ، فأسرع حوذيّان وفتحا باب العربة، ونزل منها شاب وسيم أقرب الى القِصَر منه الى الطول جميل المُحيّا، مبتهج الأسارير، وفي يده عَصَا قصيرة، وقد لبس الزي الرسمي الأبيض، وعلى رأسه قبعة طويلة بيضاء ، ثم تلاه رجل نحيف طويل القامة يلبس مثله غير أنه لا يمسك عصا، فهبّ الحرس والفرسان مع رماحهم الطويلة وأدّوا التحية، فرد عليهم الشاب الوسيم التحية بأن رفع العصا بيده اليمنى محاذية وجهه.

كانت المشاهدة قد جرت في عصر يوم من أيام الصيف البغدادي المعروف بالحرّ الشديد. وبعد عودتي الى مدينة الكاظمية مع غروب الشمس سألت عمي عما رأيته وعن الرجلين اللذين ترجلا من العربة الجميلة فأجابني: القصير منهما هو الملك (فيصل الثاني) ، والطويل منهما هو خاله ووصيه الأمير عبد الإله .وأما العصا القصيرة التي كان يحملها فهي ( عصا المُلْك).

# صافرة الإنذار قبل منتصف الليل

في حوادث حرب السويس سنة (1956) وهجوم الانكليز والفرنسيين والإسرائيليين على مصر، وما عرف في الأدبيات السياسية بـ( العدوان الثلاثي) عمّت التظاهرات بغداد وبعض المدن انتصاراً لمصر وتنديداً وتقبيحاً للمعتدين.

وأذكر ليلة قبيل منتصف الليل - وكنت في بيت جدي الكائن في زقاق قديم من أزقة (محلة القطّانة) في الكاظمية – أن عمي وجم هنيهة وأقفل المذياع ( الصندوقي) الذي كانت موجته وإشارته لا تغادران الإذاعة البريطانية، والأذاعة مسترسلة في تفاصيل أخبار الحرب، ثم هُرِعَ الى سطح الدار، فلحقت به ، ورأيت السماء سوداء صافية السواد ، ولا أثر (للكهرباء) إلا بصيص نور من هنا وهناك ، وكأن المدينة اتشحت بالسواد حزناً وصمتاً.

سألت عمي ما الذي جرى؟ ولماذا الصعود مسرعاً الى سطح الدار؟ فأجاب: سمعت صوتاً شبيهاً بصافرة الإنذار ، ولما استفسرتُ عن المقصود بها قال: إنها صافرة تنذر الناس بقرب وقوع حدث جلل، وعلمت حينما أدركت أن كلاماً شاع في البلد على تدخل عسكري للقواعد الجوية البريطانية السرية في العراق.

ومن الطريف ذكره أن جدي كان يُحرّم على نفسه وغيره سماع المذياع إلا الأخبار والأنباء، وكان يجزم بأن أخبار الإذاعتين البريطانية والتركية الناطقتين بالعربية هما أصدق أنباءً من غيرهما، وغالباً ما كان يستمع الى (بيغبن) وهي تدق معلنة وقت الأخبار المفصلة في الساعة العاشرة مساءً بحسب توقيت بغداد، ولما يعلن المذيع بعد دقات الساعة المدوية قائلاً بصوت جَهْوري: ( هنا لندن ، دار الإذاعة البريطانية) يعقبه جدي بالعبارة التي أصبحت مألوفة لنا جميعاً أهل البيت : ( الله يهجمه) ، والمقصود : لندن.

## (جمهورية ) أم ( جنبورية) ؟

وفي حوادث العدوان الثلاثي على مصر أيضاً عمت المظاهرات بعض شوارع بغداد، وكانت إحداهما في مدينة الكاظمية ، إذ خرج حشد مختلف من الناس مُردّدين شعارات مؤيدة لجمال عبد الناصر ومستنكرة العدوان ، ومنددة ( بنوري السعيد)، وهو أحد أبرز السياسيين العراقيين في العهد الملكي ، وقد تسنم مرات عديدة رئاسة الوزراء، وكان من منافسيه السياسي العراقي الأصيل ( صالح جبر) .

ومن الطريف أن إحدى تلك المظاهرات نادت بشعار مثير للسخرية ، إذ ردّد القوم وهم خليط من الدهماء والغوغاء العبارات الآتية : ( نوري السعيد القندرة وصالح جبر قيطانه) فجعلوا الصلة السياسية بين الاثنين (القُنْدَروة)، وهي الحذاء باللهجة البغدادية، و(القيطان) أي رابطة الحذاء باللهجة البغدادية أيضاً . وهذه صلة تفسر أموراً ، منها : ثقافة المتظاهرين المتدنية جداً وفهمهم الظاهري البسيط للسياسة ودهاليزها، لأن الدراسات الرصينة في التأريخ السياسي المعاصر للعراق دلت على أن ( صالحاً) كان منافساً لنوري السعيد ، وجعل من نفسه نِدّاً له.

ومن جملة المظاهرات مظاهرة بسيطة عمادها طلبة المدارس خرجت ضحى يوم من الأيام تجوب شارع ( باب الدروازة) في الكاظمية ، وكنت في ذلك

الحين طالباً في المدرسة الدينية الابتدائية، وهي مدرسة أهلية تعنى بالتدريس الديني مضافاً إليه ما قررته وزارة المعارف ( التربية) العراقية . وكانت المدرسة عبارة عن دار شرقية مؤجرة كائنة عند مدخل باب الدروازة، ويديرها المرحوم السيد( مرتضى العسكري) الذي تبوّأ فيما بعد منزلة علمية كبيرة وعُدّ من العلماء المجددين والمحققين عند الشيعة الإمامية.

خرجت هذه المظاهرة الصغيرة وكنت مع المتظاهرين لا ألوي على شيء، ولا أدري ما المظاهرات؟ ومَن الإنكليز؟ ، ومَن عبد الناصر؟ وكنت برفقة أحد الطلاب في المدرسة ، وهو من أسرة علمية دينية مشهورة في الكاظمية، فأخرج وهو خائف يترقب صورة صغيرة لعبد الناصر أخفاها تحت قميصه، وقال لي : هذا هو عبد الناصر؛ فنظرت في سيماه من خلال الصورة ، وبدا فيها كعادته مبتسماً جريئاً حازماً واثقاً من نفسه ، بيد أن سيماه وصورته لم تترك في نفسي شيئاً من الحظوة والقبول أو من الرفض والكراهية لسبب واضح هو أني لم أدرك معنى السياسة والعدوان وقناة السويس وإسرائيل وبريطانيا وفرنسا، وغيرها من مفردات سياسة الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين. قلت لصاحبي: ماذا يزعم صاحب هذه الصورة؟ وماذا يريد؟ فأجابني : إنه يريد التحرر من الإنكليز والاستعمار، ويدعو الى الوحدة العربية ، وينادي بضرورة إسقاط الأنظمة الملكية، وحلول الأنظمة الجمهورية محلها. لم أفهم من عبارته وكلماته هذه شيئاً يذكر غير أني

علقت بعبارة (الجمهورية)، فاعترضت صاحبي قائلا : أهي (جمهورية) أو ( جنبورية) ؟

فأجاب: هي الجمهورية لا غير ، فاستدركت عليه قائلاً : لا .. إنها الجنبورية لأنها تجبر الناس على أشياء إن بدت لهم أساءت إليهم ، فابتسم صاحبي ساخراً، ولم يسترسل في الحديث وكأنه يسخر مني لأنه كان أكبر مني سنة أو أكثر حظيت عنده- كما توهم- بميزة العقل والإدراك.

هذا الحوار ( اللغوي الاشتقاقي ) الذي جرى في خمسينيات القرن العشرين جعلني أنظر عند الكِبَر في مسألة مهمة في علم اللغة ، وهي العلاقة بين الأسماء ومُسّمياتها، وأدركت في نفسي شغفاً بالاشتقاق العجيب الغريب ، إذ جعلت ( الجنبورية) مشتقة من (الجَبْر) ، واليوم – وقد بلغت الخامسة والستين من عمري – تيقنت من أن فحوى الاشتقاق له حقيقة راسخة في أنظمة الشرق الأوسط، ولاسيما الأنظمة العربية ؛ فالجمهوريات ليست أقل سوءاً من الملكيات إن لم تزد عليها.

# القفز من أعلى البرج

في ليلة من ليالي صيف بغداد في الخمسينيات نظمت فرقة أجنبية استعراضاً لافتاً للنظر في معرض بغداد ، وكان المعرض قد أُقيم على ضفة دجلة من جانب الكرخ في بداية الشارع الذي يربط ( الرحمانية ) بـ(الكاظمية) .

كان معرضاً بسيطاً في أرض مفتوحة ، ارتاده خلق كثير من الناس وهم معجبون بما فيه على قلة قيمته فيما لو قورن بمعارض البلدان المتطورة ، غير أن العراقيين لم يألفوا هذا الجديد من قبل .

ذهبت بصحبة عمي وعماتي لزيارة هذا العنوان الجديد ، وكانت ليلة مقمرة تنظر من خلالها الى قبة السماء وهي سوداء ناصعة السواد لا شِيَة فيها ، والقمر لما يكتمل بعد ، وتهب بين الحين والآخر نسيمات تزيد من لطافه الهواء ، ولو نظرت الى دجلة لرأيت الماء على حافتها يكاد يمس الشارع الترابي الممتد بمحاذاتها إلا قليلاً. دخلنا المعرض مسرورين مبتهجين ، وإذا بُبْرج عالٍ تحته حفرة كبيرة مملوءة بالماء ، وعلى البرج رجل ضخم الجثة يأتزر إزاراً ، ويلف على جسده قماشاً غير مَخِيط. كان الرجل حليق الرأس إلا من نُواسة متدلية على ظهره، وسيماه أشبه ما تكون بجلادي هولاكو وجنكيز خان. وسرعان ما سكب الرجل على جسده وقوداً وأشعل النار فيه،

وقفز من أعلى البرج ، وسقط في الحفرة ، وخرج منها والماء يقطر من جسده، وترى آثار الحرق على ما يلبسه شاخصة للعيان، ورفع يديه بعضلاته المفتوله يحيي الجماهير التي صُعقت من هول ما رأت وهي تصفق معجبة به. وانتهى المشهد ، وانصرف الناس ،ولكن الرجل الضخم عاود الصعود على البرج ليري فنه ( الناري) جمهوراً آخر من الناس.

كانت ليلة ممتعة . عدنا الى البيت بعد منتصف الليل راكبين سيارة عمي (البيوك السوداء) الضخمة التي باتت تذكرني دوماً بالرجل الضخم المغولي السَّحْنَة وقفزته النارية من العلياء.

# دبابات تعبر جسرا ( رومانيا)

سافرت بصحبة والدتي وأخي الى إيران بعد فرار الشاه الى أوربا عبر بغداد، واستيلاء مُصدّق رئيس الوزراء على السلطة كامله وتأميمه شركات النفط، واندلاع ثورة الشارع في سنة (1953م) ، إذ اندفعت جموع الثوار الى تماثيل الشاه المنصوبة في الساحات الرئيسة للعاصمة طهران وبعض المدن الأخرى وأطاحت بها وحطمتها وجعلتها جُذاذاً . كان الهتاف بسقوط الشاه، وحياة مصدق من أكثر الهتافات رواجاً بين ثوار الشوارع هؤلاء ، يتقدمهم ذوو الرايات الحمر من حزب ( تُوده) ، وهي تسمية فارسية للحزب الشيوعي الإيراني، وتعني الكلمة : ( الشعب) ، ورُوّج في الإذاعة وبعض الصحف الموالية للثوار أن الشاه ترك البلاد بصحبته الملكة (ثُريّا) ؛ فزاد هذا الخبر غليان المتظاهرين وحماستهم واندفعوا تجاه القصور الملكية في طهران وغيرها من المدن، بيد أن الجيش منعهم من الوصول إليها خشية أن يتغلب الغوغاء والدهماء وتنهب القصور وتُخرّب على أيديهم.

وبعد أشهر تضافرت الاتصالات السرية بين الموالين للشاه بزعامة أخته الأميرة ( أشرف) والجنرال ( زاهدي) وبين السفير الأمريكي في طهران، وأثمرت هذه الاتصالات عن بذرة انقلاب خبيثة دبرها الجنرال مع قادة بعض الوحدات العسكرية ، وحصل الانقلاب واستولى الجيش على السلطة وعاد الشاه وملكته الى عرشه وعاصمته ، وألقي القبض على رئيس الوزراء

(مصدق) ووزرائه وأعوانه، ومنهم الجنرال ( رياحي) ، ووزير خارجيته (فاطمي) .

وفي فجر ليلة من ليالي الصيف ،وكنت مع والدتي في إحدى المدن الإيرانية (بُروجرد) سمعت صوتاً يشبه حركة (القلاّبات) الزراعية، فاستيقظت خائفاً وَجِلاً وخرجت من المكان الذي كنا فيه ، ونظرت الى الأفق، وكان يميل شيئاً فشيئاً الى الانفتاح حيث يتبين فيه الخيط الأبيض من الخيط الأسود. كان المنزل الذي نزلنا فيه قريباً من غابة صغيرة منحدرة نحو نهر صغير يقطعها من أول البلدة الى نهايتها، وعلى يمين هذه الغابة جسر ممتد على النهر بُني على الطراز الروماني القديم مقوساً تتخلله من أسفله منافذ مبنية بالحجر، وأعلى الجسر وعلى طرفيه مبني باللّبن المفخور (الآجُرّ) . سارع بعض الناس متجهين الى الجسر فسرتُ معهم، حتى وصلنا الى مقربة منه، فشاهدت رتلاً من الدبابات يعبر الجسر داخلاً في المدينة ، وكنا نقف حيث نرى مقدمة الدبابه وأسفلها قبل أن تستقر على الجسر وتعاود النزول منه. والغريب أنني لم أرَ جندياً رؤية العين؛ فالدبابات كانت محكمة الغلق، وعلى ( هوائية) كل دبابة علم أحمر صغير، علمت بعد ذلك أنه رمز الى أن الكتيبة العسكرية في حالة حرب. كان منظراً امتزج فيه الخوف مع الحيرة لما سيحدث في تلك البلدة الآمنة من حدث قد يكون جَلَلا، غير أن

شيئاً من ذلك لم يحصل إذ استقرت الدبابات في وسط البلدة ومداخلها ومخارجها والأبنية الحكومية فيها، وانتهى كل شيء .

بعد أيام من هذا الحدث نظرت في إحدى الصحف ورأيت ثلاثة أو أربعة رجال معصوبي الأعين مشدودي الأيدي من الخلف الى أعمدة الكهرباء الخشبية وقد تدلت رؤوسهم على صدورهم ، وسألت عنهم فقيل : هؤلاء من حزب ( توده) نُفّذَ فيهم حكم الإعدام رمياً بالرصاص.

# فارس الليل

في منتصف الخمسينيات اصطحبت والدتي وأخي الأصغر مني سِنّاً في سفرة الى إيران لزيارة العتبات المقدسة ، وكان الطريق السالك لمن يروم السفر الى هذه البلاد من بغداد هو الطريق المؤدي الى مدينة ( خانقين) ، ومنها الى مركز الحدود العراقية المسمى بـ ( المُنْذرّية) . والظاهر أن الوشائج السياسية بين البلدين في ذلك الزمان قد تعثرت وشهدت فتوراً استدعى قطع السفر البري المباشر، بمعنى أن الحافلات الإيرانية أو العراقية لا يمكنها اجتياز الحدود ونقل المسافرين والزوّار . واقتضت هذه القطيعة التي لم تبلغ بعد الطلاق البائن أن تصل الحافلة من الجهة العراقية الى المنذرية ، وتنزل المسافرين مع أغراضهم ، ثم تأتي حافلة أخرى من الجهة الإيرانية وتنقل المسافرين الى داخل الأراضي الإيرانية وتوصلهم الى مدينة ( كِرْمانشاه) أو الى العاصمة طهران، والمعاملة بالمِثل للحافلات الإيرانية التي تنقل زوار العتبات المقدسة الى الكاظمية، إذ تُنْزل مسافريها في الكمرك الحدودي الإيراني المعروف بـ ( خُسْروي) ، وما بين (الكمركين) مسافة قصيرة تفصلهما هضاب وصحراء وعرة ، وبينهما أيضاً الخط الحدودي من الأسلاك الشائكة ، وكأن الأرض ليست لله يورثها من يشاء من عبادِه.

وصلنا الى المنذرية بعد منتصف ليلة مقمره بدت كأنها الليلة الرابعة عشرة لإتمام البدر؛ فانشغل المسافرون ومعهم سائق الحافله ومساعدوه بإنزال

الحقائب وأمتعة المسافرين بانتظار الحافلة المقبلة من الجهة الأخرى. وعمل كهذا يستغرق ساعات لكثرة الزوار ، إذ تستوعب الحافلة الواحدة أكثر من خمسين زائراً.

كانت والدتي منشغلة بنقل الحقاب، وأخي جالس على بعضها ، فعدوت الى الصحراء أمامي مبتهجاً بمنظر لا أنساه أبداً: صحراء تتخللها هضاب اتشحت باللون الفضي لانعكاس ضوء القمر عليها ، وظهرت السماء صافية السواد تلمع فيها آلاف النجوم وكأنها تغمز للناظر وتستهويه للنظر إليها ومناجاتها. اندفعت مبتعداً عن صخب الزائرين، ثم وقفت انظر الى تل بعيد إذ رأيت خيالاً يتحرك بسرعة تلقائي نازلاً من أعلى التلّ ، فوقفت أمعن النظر في هذا الخيال وكأنه شبح ، ولما اقترب أكثر رأيته فارساً يمتطي صهوة جواد يسيل بين البطحاء سيل الماء من أعالي الهضاب، فانتابني شعور بالفضول الممزوج بالحذر والترقب والتعجب، ولكن الخوف لم يأخذ مني مأخذاً، وما بيني وبين أقرب تل مسافة قصيرة. انحدر الفارس مسرعاً حتى وصل الى أسفل هذا التل قريباً مني، ووجهه ووجه جواده حيالي وقد شدّ عنانه. أخذ ينظر إليّ بدهشة من غير تخويف وإرعاب، فأمعنت النظر فيه مندهشاً أيضاً من غير خوف أو وجَلَ، ورأيته فارساً طويل القامة، نحيف الجسم ، منتصب الصدر ، مرفوع الهامة، يلبس رداءً أبيض، وعلى كتفيه عباءة داكنة اللون، ويعتم عمامة خضراء، وقد اخترق سيف منزوع

من غُمْده عمامته طولاً ، قبضته في خلف العمامة، وأكثر نَصْله خرج برأسه الى الأعلى من أمام العمامة، وقد أسدل ذيل عمامته محتنكاً بها. أدهشتني سيماه، إذ ظهر وجهه النحيف الطويل ، وحاجباه المرتفعان الى الأعلى من جانب صُدْغيه، وعيناه الواسعتان وقد انعكس عليهما ضوء القمر ، وبدت كأنهما تلمعان لمعان السيف على رأسه. نظر إليّ دقائق ولم يَنْبِس بكلمة، ثم أدار صهوة جواده وأطلق له العِنان مسرعاً مبتعداً عني حتى غاب بين التلال. لم أفق من دهشتي التي جعلتني كمن لا وعي له إلا على صراخ والدتي وهي تركض نحوي خائفة مذعورة لظنها أني تهت في الصحراء وأكلني الذئب، والمشهور عن ذلك المكان أنه مَذْأبة تكثر فيها الذئاب، وصلة الذئب باكتمال القمر حديث يتداوله بعض الناس، ولا يبعد أن يكون فيه شيء من الحقيقة. إن هذا الحدث رسخ في ذاكرتي ونقش فيها كالنقش على الحجر، ولست أدري – وقد نيّفت على الستين- مَنْ كان ذلك الفارس؟ ولكن يقيني أن ما رأيته كان حقاً لا محض خيال.

# حيّة تبتلع رجلا

حدثني جدي – رحمه الله- السيد حسن أنه في أحد أسفاره الى بلاد فارس لزيارة العتبات وشراء السجّاد الفاخر للتجارة فيه، إذ كان من مشاهير تجار السجاد وله غرفة في خان التميمي ببغداد، وهو خان مختص بالتجار يقع قريباً من السوق المعروفة بـ ( سوق الصفافير) قد اتخذ – والحديث له – طريق القوافل من بغداد عبر مدينة ( مندلي) التي تفصل حدود العراق شرقاً عن حدود إيران، وبعدها مرتفعات وجبال تسمى بـ( جبال الوالي) ، تنحدر الى سهول تكتنفها جبال يسميها أكراد تلك النواحي بـ( بُشْت كُوهْ) .

قال: وفي إحدى الليالي توقفت القافلة للمبيت في قرية من قرى الأكراد حتى طلوع الشمس للاستراحة وتجنب السير في الليل لكثرة الذئاب وغيرها من ذوي الأنياب المفترسة والجارحة في تلك الأنحاء، يضاف الى ذلك كله تجنب لصوص الجبال الذين يقفون في مداخل المرتفعات ومخارجها يتصيدون ما يرونه مناسباً للسرقة من أفراد وجماعات، وأغلب هؤلاء اللصوص كانوا من أكراد الجبل المعروفين بـ (الكاكاوندية).

وأردف قائلاً: بتنا في تلك القرية وأمضينا فيها المساء الى أن طلع الفجر؛ فقمت لأداء صلاة الصبح ، وقد تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وأمكن رؤية الأشخاص من مسافة ليست بعيدة، وتوجهت الى بئر كان أهل

القرية يستقون منها للوضوء، فلمحتُ رجلاً قد جلس على حافة البئر وأدلى بالدلو فيها ليستخرج الماء فإذا حية كبيرة تسترهب الرجل وهي فاتحة فمها خارجة من البئر ؛ فتلقفت الرجل من رأسه بين فكّيها، وبدأت تبتلعه شيئاً فشيئاً وهو يصرخ ويستغيث ولا من مُغِيث، حتى غاب صوته في جوف الحية ، وبقيت رجلاه تهتزان بقوه، ولكنهما لم تلبثا أن اختفيتا في جوف الحية أيضاً.

قال جدي: لما رأيت ما رأيته وقفت واجماً، ونسيت الزمان والمكان والحال التي كنت فيها مصدوماً مرعوباً حتى أفقت على صوت رجال من القافلة ينادونني للرحيل واستئناف السفر.

# لصوص الجبل

حدثني جدي أيضاً عن فراره من التجنيد الإلزامي في آواخر العصر العثماني، فقد أجبرت هذه الإمبراطورية أعداداً كبيرة من الرجال للانخراط في الجيوش العثمانية التي كانت تحارب مع ألمانيا القيصرية الروس والإنكليز والفرنسيين، وكانت تطلق على هؤلاء المجندين عبارة : (سَفَرْ بَرْ) التركية العثمانية ،وتعني ( المُجنّد).

وغالباً ما كان هؤلاء المجندون يرسلون الى جبهات القتال النائية في القوقاز والقرم وأطراف أوربا الشرقية ، ويعاملون معاملة أقل ما يقال عنها إنها معاملة وحشية قاسية ، إذ كان ينظر إليهم على أنهم عبيد الأتراك، وكانوا يستخدمونهم سُخْرة لنقل المؤن والذخائر والسلاح، أو يرسلون زُرَافاتٍ ووِحْداناً الى حقول الألغام لتفجيرها بأجسادهم. هكذا كان الشائع بين عوامّ أهل العراق فضلا عن خواصّهم، فارتبطت عبارة ( سفربر) بمعنى الإنتحاري غير المُخيّر، أو الذي يسافر الى أرض الموت من غير أمل بالرجوع الى بلده. ونادراً ما كان المجند يفلت من الموت أو من الأسر فيلوذ بالفرار. وكان من جملة الفارين المحظوظين خال جدي واسمه (هادي) ؛ فقد فَرّ من القوقاز متجهاً الى الهند عن طريق روسيا الشرقية وآواسط آسيا، حتى وصل الهند واختلط بقرويين يعيشون في الغابات والأحراش. وعاش بينهم مُعزّزاً مُكرّماً. وبقي هناك سنين طوالاً حتى يئس أهل بيته من رجوعه وظنوا

أنه من الميتين، فإذا هو في يوم من الأيام يطرق باب بيته، ولما فتحت له الباب وجم أهل البيت يكادون لا يصدقون عِياناً ما رأوه، فقد كان (هادي) في زي الهنود ، طال شعر رأسه حتى بلغ منكبيه، وطالبت لحيته حتى تجاوزت صدره الى بطنه، ولما عرّفهم نفسه وحلق شعر رأسه ولحيته عرفوه.

قال جدي : توجهت من مدينة النجف قاصداً بغداد ، ومنها الى ( مندلي) على الحدود الإيرانية، وتمكنت من الحصول على جواد ( لا أذكر إن قال لي أكان الجواد شراءً أو هبة؟ )، واستعنت به في طي السهول والجبال ما بين مندلي وما يعرف بـ (يُشْت كُوه) ليلاً خوفاً من رصد العثمانيين ،وفي إحدى الليالي استوقفني نفر من الرجال علمت أنهم أكراد الجبل، وأقبل كبيرهم تجاهي وأنزلني برفق من صهوة الجواد، وأخذ رجل آخر بعنانه، ورأيت القوم يبكون ويتضرعون إليّ لأدعو لهم بالمغفرة، وما أدهشني حقاً أني كنت مُعْتما عِمامة سوداء، وهي أمارة على أن صاحبها من السادة العلويين، إذ جاء أحد الرجال ورفع عمامتي وقَبّلها ووضعها على حجر من أحجار الطريق، وقال لي : يا سيد نرجو منك المعذرة ، اغفر لنا ما سنسرقه منك، وادعو لنا بالجنّة ، وكانوا يتكلمون بإحدى اللهجات الكردية الشائعة في تلك الأنحاء بيد أن الرجل الذي خاطبني تكلم بالعربية.

وسرق هؤلاء ما أملك : الجواد ، و ( الصاية والزبون) ، ونقوداً قليلة كانت في جيب قميصي، وساعة جيبية قديمة مع سلسلتها ، وتركوني مجرداً إلا من قميص يسترني وسروال طويل.

وانتهت هذه المراسيم العجيبة بأن حملوا عمامتي السوداء وقبّلوها مرة أخرى وتبرّكوا بها ووضعوها على رأسي ، وقبّلوا يدي ، وودّعوني طالبين المغفرة والرضوان.

نظرت الى ما حواليّ من جبال وقد تجاوز الليل منتصفه ، وسلكت السبيل الذي دلني عليه هؤلاء، وكانت ليلة مقمرة، وتوجهت بخطوات سريعة صوب الوادي الكبير، وكنت أسمع بين الحين والآخر صوتاً يناديني باسمي ، وأسمع صداه أيضاً، فاعتراني خوف شديد، غير أني تغلبت عليه بقراءة ما أحفظ من آي الذكر الحكيم ، وبقيت على هذه الحال حتى انبلج الفجر ، وسارعت الخطى ، وبدأ التعب يأخذ مني مآخذاً ، فاسترحت الى أن بدأت الشمس تشرق من مشرقها ، فلاحت الحمرة المشرقية مضفية على الجبل والوادي بهاء نورانيّاً يزيل هموم النفس.

لمحت من بعيد قرى ( الوالي) ممتدة في سهل منحدر فحمدت الله على نجاتي ، وأسرعت في المشي الى أن أدركت أول قرية ، فتجمع أهلها ينظرون إليّ بعين الريبة في أول الأمر ، ولكنهم ما لبثوا أن اخذوني الى

شيخ القرية الذي استقبلني على أحسن حال، وحكيت له وللجالسين معه ما حصل لي في الطرق، فحمدوا الله تعالى جميعاً على رعايته وعنايته، وقال لي شيخ الجبل : لقد حلّت بنا البركة إذ زارنا سيد من ذرية محمد (ص) وعلي (ع) ، وخيرّني بين الإقامة معهم مدى ما أشاء والسفر الى مدينة (كرمانشاه) ، ولكني اخترت الثانية ، لأنها كانت مقصدي.

وبعد أن أمضيت مع هؤلاء المضيفين الأجواد الكرماء ليلة تهيأت للسفر في الصباح بعد أن أشرقت الشمس وأتمت قرصها، وكان شيخ الجبل ومن معه من وجوه القرية في توديعي، وأكرمني بفرس أصيل مع ما عليه، وزاد المسافر، وأرسل معي فارسين من فرسانهم الأشداء لحمايتي، فأوصلاني الى بداية الطريق الترابي الذي يوصل الى مدينة كرمانشاه، ثم ودّعاني ملتمسين مني الدعاء لهما بعد أن قبلا يدي وتيمنا بعمامتي التي لولاها لكنت ( حَرَضاً من الهالكين) .

# عِفْرِيت في البُسْتان

حدثني والدي – رحمه الله- أنه كان عريفاً في المدفعية الملكية في آواسط الأربعينيات من القرن العشرين إذ ظهرت بوادر العصيان عند أكراد الجبل، وقلبوا ظهر المِجنّ للحكومة ، فنشبت بين الطرفين حرب ضروس في جبال السليمانية وأربيل وراوندوز، وكانت حرباً غير متكافئة من حيث طرائق القتال. وليس من الأمثل في أغلب الأحيان أن يقرن جيش نظامي بعصابات الجبال ويحصل القتال بين الفئتين على النحو العسكري (التقليدي) ، إذ يمكن لعشرة رجال أو أكثر أن يتحصنوا في الجبال ومسالكها ويمنعوا رتلاً من مئات الجنود بصحبة أسلحتهم المختلفة من العبور من معبر ما أو التقدم تجاه أهدافهم.

كانت السرية الهندسية لوالدي قد استقرت مؤقّتا في جلولاء الى حين صدور الأوامر بتحركها نحو مرتفعات راوندوز، وكان بين مقر السرية و( محطة القطار) طريقان، أحدهما وهو الأطول مسافة يجتاز المدينة ، والآخر وهو الأقصر مسافة يجتاز بستاناً مكتظّاً بالنخيل وأشجار البرتقال وغيرها.

حصل والدي على ( إجازة) بعد جهد جهيد مدة أسبوع، وهو أمر لا يحصل إلا نادراً في أيام ( الحركات) ، فاغتنم الفرصة ، وغادر السرية قبل المغرب ليركب القطار الى بغداد ويستفيد ليلة واحدة مضافة الى أيام إجازته وهي

ليلة السفر، وكان حريصاً على أن يبلغ المحطة في أسرع وقت، ولذلك اختار أقصر السبيلين، واقتحم البستان الكبير وقد آذنت الشمس بالغروب، وزحف الظلام الى البستان الذي خلا من الأناسيّ، وارتاض فيه الثعلب والذئب وابن آوى، وتسمع صوت الذئب يناجي القمر وقد اكتمل بدراً، وانحسرت السماء عن غيوم الخريف وبدت سوداء يتخللها لمعان النجوم، وزاد ذلك كله في وحشة الغابة الصغيرة، واستوحش والدي الطريق بين الأشجار والنخيل المتقاربة بعضها من بعض، وإذا صوت جّهْوري من خلفه، فالتفت مذعوراً فرأى ما وصفه لي وهو أكثر من خيال إذ رأى عملاقاً على هيئة آدمي يبلغ طوله عدة أمتار وهو عارِ إلا من مئزر أبيض اللون يأتزر به على بطنه وركبتيه ، يمشي حيناً ويعدو الخَبَب حيناً آخر، وبلغ شعر رأسه الكث المجعد الأفحم صدره، يُلوّح بيديه، وفي عينيه سعة عجيبة وبريق أعجب يخالطه حمار.

قال والدي : بدأت أعدو بخطوات تعدت ما بين قدميّ الى أن صرت أجري كجري الفرس في سوح الوغى، وألتفت بين حين وآخر الى ورائي لأرى(المخلوق) العجيب يركض إذا ركضت ، ويمشي إذا مشيت وهو ينفخ بفيه ويصفر ويزداد طولاً كلما أقترب مني، فانتابني هلع أنساني الزمان والمكان، ولم أدرك ما أنا عليه حتى بلغت نهاية البستان عند مفرزة من الانضباط العسكري يعرفونني، ولهم في ذلك المكان خيمة تُعدّ مقراً لهم،

فارتميت في حضن أحدهم أطلب النجدة. أفاقوني بعد دقائق بشرية ماء ، فحكيت لهم ما رأيته وما حلّ بي ما لا يصدقه عقل لبيب ، فقال أحدهم: ( احمد ربك يا سيد ، لقد نجوت) ، فسألته ما هذا المخلوق الذي تبعني كما يتبع الذئب فريسته فأجابني : إنه (الطنطل).

وبعد ساعة من الزمان التفت الى وقت مغادرة القطار، ولم يبق من الوقت إلا نصف ساعة أو أقل ، فشكرتهم على حسن صنيعهم، وتوجهت الى القطار لأدركه وقد أذهلني ما رأيته تلك الليلة حتى أنساني الشيطان ما كنت من متاع وزاد مسافر، فركبت القطار ، وأشارت الساعة الى الثامنة والنصف مساءً ، وبعد دقائق سمعت صفير القطار ، فانتابني فزع عظيم وجعلت إصبعيّ في أُذُنيّ حَذَرَ الموتِ، لأنني ظننته صفير (الطنطل) لا (صفير القِطار) .

# مدير الشرطة في ميدان المعركة

عمت بغداد في الخمسينيات مظاهرات احتشد لها جمع غفير من الغوغاء لا يعرفون لماذا جيء بهم ، وجُلّهم من الأميين الذين لا يحسنون التعبير عن أفكارهم بما يتناسب والخِضمّ السياسي العجيب لشعب تتقدم مظاهراته (حَمَلة الحِبال) والعِصيّ. وكنت في ذلك الزمان صبيّاً لا يعرف شيئاً مما يدعى بالسياسة، بيد أني كنت أسمع عبارات و(شعارات) فِجّة، أمثال قولهم: ( نوري السعيد القندرة وصالح جبر قيطانه) ، إشارة الى رئيس وزراء العراق المُحنّك نوري باشا السعيد عرّاب ( حلف بغداد) ، وصالح جبر أحد أبرز السياسيين المنافسين له . وما بين الرجلين خلاف في المذهب والعقيدة ، إلا أن ما كان يجمعهما ( النهج العَلْماني ) المعتدل ، وحبهما للعراق أن يكون رائداً لأهم حلف في الشرق الأوسط ، ومثالاً لدولة متطورة قائمة على المؤسسات الدستورية ، يسودها القانون والتداول السلمي للسلطة، ويرأسها (ملك) مصون ، غير مسؤول ، يملك ولا يحكم على غرار الملكية في بريطانيا التي كانت تسمى في ذلك الحين ( بريطانيا العظمى) .

وكان الردّ الحاسم لأتباع نوري السعيد من المتظاهرين أن تنادوا بشعار فيه تيئيس للفئة الأخرى، ولكنه شعار تدل عبارته على التوزان والحشمة. كان هؤلاء يصرخون بهتافات تتخللها عبارة ( دار السيد مأمونة) ويعنون بالسيد رئيس الوزراء . وغالبا ما كانت الفئتان تلتحمان في معركة بالعِصّي

والحجارة تفضّهما ( الشرطة السيّارة) التي أنشأها نوري السعيد لحفظ الأمن الداخلي.

وفي إحدى تلك المظاهرات تحمّس المناوئون وهجموا على الشرطة ، وكان في طليعة الشرطة مديرها المِكْنيّ بـ( أبي كُحْلة) ، ولا أعلم أكان مدير عام شرطة بغداد أم مدير شرطة الكاظمية ؟ ولا أعرف على وجه اليقين لماذا كُني بهذه العبارة ، إذ قيل إنه كان يكتحل.

ولما التقى الجمعان كانت الغَلَبة للمناوئين على المناصرين ، وفَرّ الجَمْع وولّى الدُّبُرَ ، ومعهم الشرطة ، وعلا الصراخ معلناً النصر المبين بتَلقّي أبي كحلة ( طابوقة) على رأسه رماها متظاهر مناوئ من سطح منزل مشرف على الطريق العام، وقيل إن مدير الشرطة المغدور فقد وعيه، ونقل على إثْر ذلك الى المَشْفى.

# (العارف) وجبل (دَماوَنْد)

في الطريق من شمال إيران الى إقليم ( مازِنْدَران) الذي كان يعرف قديماً بـ ( طَبَرِسْتان) جبل شامخ مرتفع يُرى من بعيد وقد غطّى الثلج قمته صيفاً قبل أن يغطى الشتاء ثلثيه.

وفي هذا الطريق أيضاً نهر عرضهُ يسير لا يتجاوز عشرة أمتار أو أكثر بقليل في أحسن الأحوال يدعى بـ (هَراز) ، وهو نهر يندفع بشدة على صخور ، ويصدر من منابع السيول والعيون ، ولذلك تراه صافياً بارد المَجسّة، يتوسط وادياً ممتداً بين سلاسل جبلية تغطيها غابات كثيفة يتخللها السحاب من أعاليها، ويتنفس المرء في هذا المكان حرّ الهواء مخلوطاً برذاذ المطر إذا انتصفت قطع السحاب كبد السماء في الصيف. وكنت مع بعض الناس نصطاف في هذا الوادي، واستأجرنا خيماً للإقامة قريبة من النهر. وما بعد النهر تلال متفاوتة الارتفاع تغطيها أشجار الغابة. وكنت في كل يوم أعبر النهر صباحاً وأجتاز بعض المرتفعات والتلال لأصل الى مكان بعيد من مجمع الخيم، ورصدت موقعاً على تل منحدر نحو النهر، وعملت لنفسي سدّاً صغيراً من الصخور في وسط النهر وطرفه ليرتفع الماء فيه الى نحو متر ونصف المتر لأن عمق النهر لا يتجاوز المتر. كان هذا شأني وديدني في الصباح حتى الظهر، أجلس بين الأشجار وأمامي من بعيد جبل (دَمَاوَنْد) الذي بهرني بشموخه وكبريائه، وكأنه يحاكيني أجيال

الناس ودهور التأريخ، فأنظر الى قمته البيضاء في عنان السماء لأُعظّمَ الخالق فيما خلق. وكانت الشمس حين تميل الى الزوال في منتصف السماء ترسل أشعتها الذهبيه الى قمة الجبل فيختلط الأبيض بالذهبي فيزداد جمالاً وبهاءً، تشع الأنوار من قمته لتغطي سفوحه، وتنعكس بشدة الوهج على قمم الجبال الأخرى التي بدت وكأنها أولاد (دماوند) أو صغاره مجتمعين حول أبيهم الشيخ الكبير القوي الجسد والنفس معاً .

وقبل أن أغادر المكان الذي جعلته لنفسي منزلاً ، أنزل الى سدّي المصطنع في النهر واغتسل فيه، وهو نعم المُغْتَسل البارد والشراب، ثم أعود أدراجي وبيدي عصا أتوكأ عليها وأهشّ بها على النباتات التي تعترض طريقي وكأنها قطيع من الغنم، تميل بها الرياح حيث تميل.

وأذكر في ضحى يوم من الأيام، وكانت السماء تنذر بالغيث، وقطع الغيوم تسير فيها لتجتمع في مكان ما ، والشمس تبدو حيناً وتختفي حيناً آخر ، خرجت أسير بعصاي الى منتجعي وسدّي المائي، الى أن بلغت المكان وجلست تحت شجرة استديم النظر الى جبل دماوند، وقد جذبني إليه وجذب مني الإحساس بالزمان والمكان وكأني في فجوة من العُمر ، وأفقت على قطرات المطر تنزل على وجهي وتلاطفني بنسيم عليل ممزوج برائحة أشجار الغابة الرطبة ، ثم بدأت الغيوم تجتمع مُحْدثة رَعْداً خفيفاً، فقمت لأعود الى المخيم خشية المطر الشديد، فإذا رجل متوسط القامة نحيف الجسم ، يلبس

ثوباً طويلاً رمادي اللون ، وقد شدّ وسطه بحزام عريض من قماش أخضر اللون ، وعلى رأسه عمامة بيضاء صغيرة ، أسدل ذيلها تحت حنكه تدل سيماه على هواه، إذ كان نحيف الوجه ذا لحية سوداء قصيرة ، يظهر فيها شيء من الشّيْب يزيده وقاراً ، وعيناه سوداوان واسعتان، زاد سواد العين على بياضها. وترى في نظراته الهدوء والأمان والرحمة. وهي صفات لا تجتمع إلا في أصحاب التصوف والعِرْفان والسلوك ، أو من هداهم الله تعالى سبل الرّشاد من عباده الصالحين ، أو ممن جُبِلتْ فِطْرتهم على الخير ولا يعرفون للشرّ طريقاً الى قلوبهم من الناس عامة.

ابتدرني ( العارف) بالسلام، فرددت السلام عليه ، ودخلني شيء من الخوف، فأشار إليّ أن أجلس الى جنبه تحت الشجرة التي أدمنت الجلوس تحتها، وأخرج من (خُرْجه) الذي يحمل فيه أبسط ما يحتاج إليه صاحب السير والسلوك في سياحته الرُّوحانيه والجُسْمانية من لباس وطعام، كتاباً قديماً مُجلّداً بجلد عتيق يدل على قِدمه، فنظرت الى الكتاب ، فإذا هو ديوان ( حافظ الشيرازي) ، أشهر شعراء بلاد فارس، ويُعدّ من الشعراء الكبار في الحضارة الإنسانية الجامعة.

بدأ العارف ينشد أبياتاً لحافظ ، وعرض عليّ أن أحفظها وأتعلمها، وكان يريد أن يعلمني بما أحاطهُ الله به علماً ، غير أني – ويا للأسف الشديد- زاد خوفي فقمت ، وبدأ المطر يشتد، وتركته من غير استئذان أعدو مسرعاً،

ثم وقفت هنيهة والتفتّ الى المكان الذي كنت فيه فلم أجد العارف، ثم تنبهت الى أمر أكثر أهمية ، وهو كيف ظهر لي هذا العارف فجأة ؟ ومنذ ذلك الحين الى عمري الآن لم آسف على شيء أسفي على تركي هذا العارف وخوفي غير المبرر منه.

إن أمراً قد يحصل للمرء في حياته يجعله يسلك طريقاً لم يكن في الحسبان. وهذا الأمر قد حصل لي مع هذا العارف إذ اتجهت بروحي وعقلي الى (شِعْر حافظ) ألتقط منه دُرَر المعاني العرفانية ، وما تذكرت حافظاً في يوم ما أو قرأت شيئاً من شعره إلا جعلته دالّة على جبل الشموخ ، جبل دماوند، وجعلت دماوند أيضاً دالّة على حافظ ، فغدا كلاهما دالّاً ومدلولاً على بعضهما بعضاً.

# ملك يُقتل غدراً

كان صباح يوم الرابع عشر من تموز في سنة (1958) يوم حدث جَلَل في العراق؛ فقد قام الناس مذعورين يُهْرَعون الى المذياع ليسمعوا بياناً يذيعه رجل تبدو عليه من صوته علامات الخوف والرجاء مع نَفْس عسكرية فِجّة، وركاكة في الأداء الخطابي، وتصنّع في تجنب الأغلاط اللغوية على الرغم من الوقوع فيها. كان صوتاً لا يدل على مهارة صنعة الكلام ولا على دراية بالسياسة، وخلاصة ما يمكن أن نصفه هو أنه صوت ( أعرابي) جَهْوري بتكلف.

أعلن هذا المتحدث ( سقوط الملكية) ، وقيام ما دعاه بـ ( الجمهورية) ، فزحفت جماهير الغوغاء والدَّهْمَاء بحبالهم وعصيهم تجاه (قصر الرّحْاب)، وهو قصر الملك وولي عهده ، فوقعت هناك الواقعة ، وما أدراك ما الواقعة؟ يا ليتها لم تقع، إذ هجم فوج من جنود المشاة يتقدمهم بعض الضباط على القصر وانهالوا عليه وعلى ساكنيه ضرباً بالبنادق والرشاشات والقنابر والقاذفات، وفتحت أبواب معسكر (الوشّاش) القريب من القصر ، وأُخْرِج الجنود تأييداً وانتصاراً (لأبطال الثورة) ومحرري العراق من نير الاستعمار البريطاني.

وعلا الصراخ والهتاف بحياة فلان وسقوط عِلاّن، وبعد ساعات من مقاومة الحرس الملكي الشديدة غلبت الكثرة المندفعة حقداً وكراهية وجهلاً القلة المُحاصَرة، فاستسلم ما بقي من الحرس ، وخرج الملك الشاب من القصر – بعد وعد بالأمان- تحيط به النساء من العائلة المالكة خوفاً عليه من الغدر، بيد أن ضابطاً أعرابي السَّحْنة بدوي الاسم أمر بقتل الملك ومن معه، فأُصيب من أُصيب، وقُتل من قُتل، وخرج الملك الذي أعطوه الأمان وأمامه إحدى قريباته لعلها خالته رافعة المصحف الشريف توكيداً للأمان، ودفعاً لشر الأعراب المهاجمين، وإذا المصحف يقع من يديها ملطخاً بالدماء، وسقط الملك الشاب مغدوراً مقتولاً.

وكان من جملة من قتل في ذلك اليوم الرهيب خال الملك الأمير عبد الاله، فتلاقف الجمهور جثته تلاقف الصّبْية للكرة ، ونهشوها كما ينهش الذئب فريسته، وقطّعوها أوصالاً : اليدين والرجلين من خِلافين لا من خِلاف واحد، وتقاسمها ( الثوّار) تقاسم غنائم دار الحرب، وافترقوا شِيعاً وأحزاباً ، وكل حزب بما لديهم من نصيب فرحون ، وشُدّت الأوصال بالحبال يجرونها في شوارع بغداد، وتلاقت الجموع مبتهجين بيوم النصر الأكبر و( الحرية والديمقراطية والسلام!!!) وغيرها من ألفاظ صُلِبت بدم الأبرياء ، وعُمّدتْ بضحايا الإفْك والهمجية والبربرية الأعرابية التي خلت حتى من نخوة عرب الجاهلية في الأمان.

وبعد يومين ألقي القبض على نوري السعيد متخفيّاً بزي امرأة ، ورُبط حيّاً (بدرّاجة نارية) ، وسحل في شوارع بغداد وأزقتها حتى الموت، ثم تبارى (المتحضرون الوطنيون الأحرار !!!!) في قطع يديه ورجليه ، إذ أرسلت هدية ( سنيّة) الى المحافظات ليمارس الناس فيها أيضاً ( الحرية والديمقراطية) ، وعُلّق ما بقي من جثتي عبد الإله ونوري السعيد على مدخل وزارة الدفاع الكائنة في بداية ( باب المعظم ) الى شارع الرشيد، وبقيت معلقتين أياماً تتوافد إليها الوفود ليروا ما لم يروه من قبل فرحين مستبشرين رافعين على أيديهم صور الثوار الأبطال التي سرعان ما صورت وطبعت ونُشِرت آلاف النسخ منها بين قوم كشفوا عن حقيقة بنيتهم النفسية والعقلية والثقافية ، قوم لا يمكن أن يوصفوا إلا أنهم برابرة النزعة ولا يعرفون معنىً للرحمة والحضارة والإنسانية، وكأن جيوش هولاكو التي اقتحمت بغداد وأسقطت دولة بني العباس تركت أجيالاً من أولاد السّفاح لم تطهرهم الأرض والعقيدة والقرون .

# صورة ( الزعيم ) في القمر

لم أرَ قوماً أو أسمع بهم جبلت فطرتهم على النفاق كغوغاء العراق. وإذا كان النفاق فتوناً وأنواعاً فقد تهيّأ لهؤلاء القوم أسوء أنواعه، وهو ضرب من النفاق الممزوج بالغباء و( ازدواجية الشخصية) كما يصطلح عليه في علم النفس؛ فالقوم الذين خرجوا مشيعين للملك ( غازي) والنساء يلطمن الوجوه ( وراء عربة المدفع التي كانت تحمل جنازته) هم أنفسهم قتلوا ولده غدراً، ثم عادوا يستذكرون أيامه حانقين على ( الثورة والثوّار) ، وسرعان ما انقلبوا يمجدون زعيماً ويستسخفون آخر، فأخذوا بهذا الزعيم الى عنان النجوم ليعانق في طريقه القمر ، فطبع القمر صورته على بدره. وأشاعوا بين السذّج ، وما أكثرهم ، قائلين : انظروا الى البدر ليلة تمامه لتروا صورة (الزعيم) في وسطه تحيط به الهالة ، ورفعوه الى مراتب لا يصلها حتى الأنبياء والأولياء.

وأذكر في مطلع الستينيات من القرن العشرين ليلة مقمرة من ليالي الصيف وكنت أتنزه مع العائلة في شارع أبي نؤاس ، فرأيت الناس محتشدين زُرَافات ووُحْداناً ينظرون الى السماء ، وقد انتصفها البدر ، يشيرون إليه وكأنهم يشيرون الى معجزة من المعجزات، أو الى مركبة فضائية تحمل رجال المِرّيخ، وهم في طريقهم الى كوكب الأرض، فسألت ما الخبر؟!!! فأجابني بعضهم : انظر صورة الزعيم في القمر، إنه يُحّيي شعبه المختار ، فورد

على خاطري الآن ، وأنا أكتب هذه المذكرات، قوله تعالى : ( اقتربت الساعة وانشقّ القَمَرُ) . قلت لنفسي أحاكيها مخافة الغافلين من رعاع الناس: أيكون قد اقتربت الساعة ؟ لقد جُنّ هذا الشعب وغلبته عصابة الجهل ، وفرح الشيطان في نفسه ، وأعمى بصره وبصيرته.

ويا ليت الذي أدرك تلك الأيام أن يستحضر ما وقع في شهر شباط سنة (1963) وكيف كوفئ هذا الزعيم الذي أوصلوه الى القمر ؟

# صراع الألوان

طغت في آواخر القرن العشرين نظرية في الحضارات أمريكية الولادة ، أوربية الشيوع ، يهودية الأبعاد ن اصطلح عليها بـ (صراع الحضارات) ، أو صدامها ، أو حربها ، أو ما شئت من ألفاظ وعبارات تتضمن فحوى الاصطدام والتصادم، وما يؤول في نهاية المطاف الى حرب بين شعوب الأرض ودولها وحكوماتها.

وليس من الغريب أن تشيع هذه النظرية بعد مواضعات ( العَوْلَمة) في آواسط الثمانينيات من القرن المنصرم، وتُسعّر نيرانها بعد عقد من الزمان، وكأنها مقدمة لصراع الحضارات وتهيئة لما يُدبّر للشعوب المُسْتضعَفة المغلوبة على أمرها.

هذا شأن ما حصل في العالم الأمريكي والأوربي في آواخر القرن ، ولكن ما حدث في العراق في سنة (1959م) وما تلاها أمر آخر يختلف تماماً في مفهومه ومواضعاته ، وكأن أهل بغداد رغبوا في أن تكون لهم نظرية عصبية المزاج، حربية الطالع صدامية السلوك لتكون لهم الأسبقية في ميدان التأريخ الحضاري!! وإليك البيان:

احتدم الصراع على السلطة بين ما يدعون أنفسهم أحزاباً بعد انقلاب سنة (1958)، وبلغ الصراع أشدّه بين سنتي (1959) و ( 1960) , وانقسم

الناس شيعاً وأحزاباً وفئات وعصابات يقتتلون فيما بينهم. وقد ألّف العراقيون تجمعات ومظاهرات بغض النظر عن أهمية دواعيها ومسوغاتها؛ فبلغ سَفْسَاف الأمور الذروة، وكادت تختفي معالي الأمور. ومن جملة الأمثلة لذلك أن الزعيم عبد الكريم قاسم رئيس وزراء العراق في أول العهد الجمهوري أصدراً بياناً بجعل سنة ( الثورة ) سنة عدم رسول للطلاب في المراحل الدراسية كافة، تكريماً لهذه السنة وجلباً لهوى ( شريحة) كبيرة من المواطنين.

وانقضى العام، وأُطلقت على الذين انتقلوا الى مرحلة أعلى أو تخرجوا بالكليات عبارة ( الزاحفين) ، وكأنهم ( الطلقاء) من كفار قريش. وبقيت هذه الصفة المذمومة ملازمة لهؤلاء تواكبهم سير الحياة حيثما حلّوا وارتحلوا، وانطوى ما بقي من شهور سنة الثورة، وحلّت سنة ( العُصْبَة) والعصبية. وبعد انتهاء العام الدراسي وإعلان نتائج الامتحانات المدرسية والوزارية تجمعت غيوم العبث وتلبدت في سماء بغداد، وخرجت جموع الطلبة في العام القابل تطالب بأمر في غاية السخافة والعجب وتهتف بأكثر الهتافات مثاراً للسخرية، كان الطلبة يهتفون ويصرخون قائلين: (عبد الكريم للأمام نريد زحف مثل العام) . كان هذا الهتاف أول لَبِنة تسقط من جدار التعليم في العراق، إذ فتحت لثغرة الشيطان أن تهدم ركائز العلم والمعرفة في العقد الأخير من القرن العشرين، وبقيت قلة من المعالم شاخصة للعيان فأُطْبِق عليها أيضاً بعد الاحتلال الأمريكي سنة (2003م).

وعود على بدء ما كنا فيه من حديث ( صراع الألوان) ، إذ لم يبق شيء للعجب بعد هتاف الطلبة المذكور آنفاً، فنُعِت المؤيدون للثورة بأنهم (شيوعيون وقاسميون)، ونعت المخالفون بأنهم (قوميون وناصريون ) ، وتواصلت الصولات الكلامية والهجمات بالعصي والحبال بين عصائب أهل الباطل، فتجمعت أُولادهما في مدينة الكاظمية، واحتشدت أُخراهما في مدينة الأعظمية، وهما مدينتان دينيتان يفصلهما جسر سمي بـ (جسر الأئمة) ، وأغلب سكان المدينتين من البغداديين الذين ألفوا الحضارة واستقرت في نفوسهم الطمأنينة، غير أن للشيطان حبائل ومكائد وحِيلاً وجنوداً؛ فوقع الشر بين المدينتين المتقابلتين بين ضفتي دجلة ، ولم يتورع بعض أهاليهما من الرَّعاع عن السباب والشتائم، وبلغ الأمر في بعض الأحيان الى عِراك بالأيدي والحجارة حتى انقطعت السبل بين المدينتين إلا عن وسائط النقل العابرة، وتخوف الناس من زيارتهما والتجوال فيهما إلا من أخفى نفسه وانحرف عن لهجته واسمه وكنيته ولقبه.

كان الأخضر شعاراً للقوميين المناصرين لجمال عبد الناصر رئيس مصر وسورية حينذاك فيما عرف بالوحدة بين البلدين وقيام ( الجمهورية العربية المتحدة ) ، وأما الشيوعيون والقاسميون فاتخذوا اللون الأحمر شعاراً لهم لأنه كان علماً للاتحاد السوفيتي يزينه في طرفه من أعلاه (المطرقة) تتقاطع مع (المِنْجلِ) ، وهما رمزان الى العامل والفلاح. إن هذا التواضع على

اللونين لم يكن ( رسميا حكومياً) وإنما تواضع عليهما الفريقان فشاع بين العامة من الناس .

ومن طريف المشاهدات في هذا العنوان أن أهل الأعظمية قاطعوا (الطماطم) للونها الأحمر ، وأخذوا يرشقون حافلات نقل الركاب الحكومية ذات الطابق والطابقين بالحجارة للونها الأحمر أيضاً ، وعادة ما تجد أحد الجُبَاة ( جمع جابٍ) ، وهو من يبيع التذاكر في الحافة معصوب الرأس لأن حجارة شجّت رأسه بعد كسرها إحدى نوافذ الحافلة. وربما كان المخالفون في الضفة الأخرى أكثر تعقلاً إذ سمحوا لأنفسهم أن يبتاعوا (الخيار) مثلاً ويأكلوه على الرغم من لون قشره الأخضر، وليت شعري كيف العمل مع البطيخ المسمى في اللهجة العراقية بـ (الرقّي) ؟!!! فقشره أخضر اللون ، ولُبّه أحمر، والمأكول الإنساني هو اللبُّ ، والمأكول الحيواني هو القِشْر، فهل يأكل أصحاب الرايات الخضر قِشْرة ويتركون لُبّه؟!! وأما أصحاب الرايات الحمر فالرقّي عندهم هو التّرْياق الشافي من همومهم إذ جاء موافقاً لمزاجهم ومقولتهم؛ فهم يأكلون اللبّ الأحمر ويتركون القِشْر الأخضر للحمير والبغال والخراف والنعاج وغيرها من الدوابّ والأنعام.

# ثلج الجبال تحمله البغال

أمضيت مع عائلتي شهراً من شهور الصيف في إحدى قرى الأكراد فراراً من قيظ بغداد الذي لا تتحمله حتى أكثر الحيوانات صبراً ( كأبي صابر) كنية الحمار في لهجة البغداديين . وكانت القرية جميلة الطبيعة ، خِصْبة الأرض ، وافرة المياه. فيها نهر يصدر من مرتفعات الجبال التي كانت تحيط بها من كل جانب. وأما ساكنوها فخليط من الأكراد وأشباه الأكراد، وكان الأكراد في هذه القرية على ديدن نظرائهم في غير مكان ينظرون الى الأشياء كلها على أنها من أرومة كردية؛ فكل شيء عندهم كردي النّجار حتى الجماد من مخلوقات رب الأرباب. تشبث أكراد القرية بهؤلاء الذين وصفتهم بأشباه الأكراد يصرون على أنهم منهم ، وليسوا منهم. وقد تبرأ الأشباه من هذه النسبة والنّسَب ، وادعوا أنهم من قوم آخرين يسمون بـ (اللُّر) .

ولفت نظري في هذه القرية الطيب أهلها تعاطيهم ( ثَلْج الجبال) ، ولهم في مشارف القرية مخزن كبير أقرب ما يكون الى ( السرداب) ، يأتون بالثلج من أعالي الجبال محمولاً على البغال، ويخزنونه في هذا المخزن، ويغطونه بالخشب ونشارته وبالتبن لكي لا يستهلك إذا ارتفعت حرارة الجو. وقد رأيت بغلاً من تلك البغال حُمّل عدة ألواح من الثلج ، كل لوح قد تبلغ مساحته

متراً في متر أو أكثر، انطبعت عليه تعرجات الصخور ، ومال لونه الى لون الملح نظيراً لصخور الجبال في تلك النواحي.

والظاهر أن الثلج على القمم المرتفعة يبقى صامداً في موسم الصيف أيضاً لانخفاض درجات الحرارة في أعالي الجبال، ولا يذوب منه إلا الشيء اليسير حينما تتوسط الشمس كبد السماء وتكون السماء صافية من أثر الغيوم.

وأما لماذا يكون الثلج على هيئة صفائح لا على هيئة كُتل؟ فلأنه يقتلع من صفائح الصخور المنبسطة في الأعم الأغلب، وقد يكون كُتلاً إذا اقتلع من صخور ( متكتلة) .

ذهبت يوماً الى مخزن الثلج ، واشتريت شيئاً يسيراً منه ، وجئت به الى مكان إقامتي، وغسلته بالماء ، وألقيته في إناء مملوء باللبن الرائب النقي، فكان شربه ألذ ما يكون إنعاشاً ورِيّاً مع الطعام خاصة.

وجرّني الفضول الى أن أسأل رجلاً من أهل القرية، وكان كرديّاً أصيلاً ، عمّن ابتدع هذه البدعة لجلب الثلج وحفظه في المخزن ، فأجاب فوراً: نعم، نحن الأكراد ابتدعنا ذلك . ولما سألت رجلاً آخر من أشباه الأكراد السؤال نفسه أجاب على الفور: نحن الذين ابتدعنا ذلك ؛ فضحكت من جواب الرجلين ، وعلمت أن المراوغة والمخاتلة والادعاء حقاً أو باطلاً من شيم الشعوب وإن كانت على براءتها وسذاجتها وطيبتها....

# حمار يقع في ( خزينة ) الحمّام

في إحدى سني بداية الستينيات أمضيت مع أسرتي شهراً في مدينة كرمانشاه، وكنا ضيوفاً على بعض المعارف في تلك المدينة . وهي مدينة تبتعد عن حدود العراق الشرقية من جهة خانقين، والمشهور عنها أنها مدينة قديمة يسكنها خليط من الأكراد والفرس، وتقع على مرتفعات تحيط بها الجبال من جوانبها ما أضفى عليها هواء منعشاً معتدلاً في هجير الصيف.

كانت المدينة ملاذاً لكثير من العراقيين الوافدين لزيارة العتبة الرضوية المقدسة، لأنها تقع على طريق من أراد السفر برّاً من حدود المنذرية العراقية. التقيت في هذه المدينة شيباً وشُبّاناً يتحدث كل واحد منهم عما يراه مناسباً للحديث، وكانت الأحاديث لا تخلو من الطرافة والمبالغة وربما الادعاء. وما لفت انتباهي حديث لشيخ تبدو عليه علامات الوقار، ولا أظنه مدعياً أو مبالغاً في كلامه. وكان مجمل هذا الحديث يتناول بالوصف (حمّاماً) مشهوراً من حمّامات المدينة ، تنزل إليه بسُلّم مبني من الصخر عدد درجاته أربعون، ولذلك سمي باسم ( الأربعين درجة) . وكانت الحمامات في ذلك الزمان عمومية للرجال والنساء، اختص بعضها بالرجال، وبعضها الآخر بالنساء، وربما يُتناصَف الوقتُ في الحمام الواحد، فيُخصّص – مثلاً- من الصباح الى ما بعد الزوال للرجال، وما بقي من النهار حِصّة للنساء. وفي كل حمّام ( خَزِينة) أي حوض أو خزان للماء،

تتفاوت من حيث الحجم، وقد يصل عمقها الى مترين، ويُنْزَل إليها بسلم ثابت متدرج من الحجر ليستفيد منها القوم على قدر أطوالهم وأعمارهم. والماء في مثل هذه الخزائن معتدل الحرارة ، يتطهّر به مَنْ أنجز غَسْله وأتمه قبيل خروجه الى خارج المُغْتَسل واستراحته في مكان الاستراحة.

وعادة ما كانت البغال تستخدم لجرّ دولاب الماء الذي يقع على ظهر الحمام ويتصل بمنبع من الماء . ويعمل الدولاب على ملء الخزينة، وإيصال الماء الى المغتسل كله بأنابيب من الرصاص وحنفيات يستعملها روّاد الحمام.

وكانت الحمامات في ذلك الزمان تطلى من الخارج بالجصّ والنُّورة ، ويتخللها منافذ دائرية يسترها زجاج لكي يدخل نور النهار داخل الحمام.

أخبرني الشيخ فيما أخبرني به من طرائف الأحداث وغرائبها ومنها: حينما احتل الروس هذه المدينة في الحرب العالمية الأولى تعرض الحمام المذكور آنفاً لحدث مُضْحكٍ مُبْكٍ ، وحصل الحدث في وقت كان مناصفة بين الرجال والنساء إذ حل وقت النساء لدخول الحمام ليزيد من شؤمهم (والحديث للشيخ) . قال : إنهن أقل حظاً من الرجال حتى في ارتياد الحمامات العمومية. ومجمل الخبر أن حماراً كان يحمل حطباً لوقود الحمام انزلقت إحدى رجليه على سقف الحمام في إحدى الكُوّات والمنافذ ما أدى الى خرابها لثقله وما يحمله، فوقع في الخزينة محدثاً ضجة كبيرة، ففزعت النسوة

فزعاً شديداً ، وظنّ أنهم ( الروس) هجموا على الحمام للاعتداء عليهن، أو نفرٌ من الجِن أعجبهم منظر النساء وهن يغتسلن ، فحدث ما حدث. ضجّت النساء بالصراخ ، وتفرقن مذهولات أيدي سَبا ، يركضن فراراً من الحمام الى خارجه عاريات كما خلقهن ربهن ؛ فتسارع الرجال ، وهم ذوو غَيْرَة وحمية الى ما يسترهنّ من غطاء ولباس. وأما الحمار المسكين فقد مات غريقاً في الخزينة من دون أن يبكيه باكٍ ، أو يندبه نادب ،وهو خادم الإنسان منذ أن كان ..

# أذان وسط المعركة

في حوادث شباط من سنة (1963م) حدث الانقلاب الدموي المشهور بقسوته ، وأغار ( الأعراب) على بغداد ، واستذكر الناس دخول ( هولاكو) وجلاّديه فيها ، وإعمال السيف في أهاليها ، إذ لم يسلم رجل ولا فتىً ولا فتاة ولا امرأة من القتل وهتك الأعراض وإباحة الأموال وخراب البلاد. حصل في شباط ما ذكّر المطلعين على التأريخ بسنه (656هـ) .

كان شعار الأعراب أن لا يتركوا صفة دنيئة إلا تمثلوا لها بشاهد حي من الفعل القبيح. قتل الزعيم عبد الكريم في دار الإذاعة غدراً بعد مقاومة عنيفة في وزارة الدفاع يومين متتاليين ، أُسقطت فيها طائرتان أو ثلاث ، وقد رأيت إحداهن وهي من طراز ( هنتر) البريطانية الصنع تسقط في بساتين الكاظمية . واستعملت في هذه الحرب أساليب الخداع والمراوغة ، عملها أوباش الأعراب ، كالصاق صور الزعيم على الدبابات المهاجمة لخداع الجماهير التي التفت حول الزعيم تكافح عنه ، غير أن الزعيم أبى أن تراق الدماء، وآثر الرجوع الى مقر قيادته في مبنى وزارة الدفاع، وخيّر الموجودين فيه من الضباط والجنود بين أمرين : البقاء والقتال ، أو الانصراف الى بيوتهم ، فأبى الكثير منهم الانصراف لانهم كانوا يحبونه حقّاً. وهذا أمر عجيب وشأن غريب من أهل العراق المعروفين طوال تأريخهم بالشِقّاق والنفاق والغَدْر والخيانة. وبقيت مدينة الكاظمية عصيّة على الانقلابيين ،

ونشر الحزب الشيوعي بياناً قرأتُ مضمونه يدعو العراقيين الوطنيين الى مكافحة الانقلاب العسكري بدعوى أنه من تدبير المخابرات الأمريكية ، والمراد منه تدمير البلد، وإيصال حزب عنيف المذهب، عصبي المبدأ الى سُدّة الحكم.

والتف حول الشيوعيين حشد من الناس، من محبي الزعيم ، أغلبهم من الفقراء ، إذ كان الزعيم يوصف بأنه ( زعيم الفقراء) ، اتجه الحشد الى مديرية شرطة الكاظمية ، وكنت أراقبهم عن كثب من بعيد. رأيت عدداً من الشرطة قد يصل الى عشرة رجال ،وهم منبطحون على الأرض وفي أيديهم البنادق مهيأة للنزال ، مَصوّبة الى مدخل الشارع المؤدي الى مبنى مديريتهم. وشاهدت الجمع الزاحف تجاه هؤلاء المساكين مسلحاً بالعِصي والحبال و ( القامات) و ( الخناجر) وعدد قليل من المسدسات القديمة المسماة بـ ( أم البكرة) ، وهي مسدسات أفلام ( الكاوبوي) الأمريكية. وأغرب ما رأيته بأم عيني رجلاً بديناً يحمل على كتفه ( عِثْقاً) مجرداً من التمر لينازل به الشرطة.

ولما اقترب الجمع بدأ الشرطة بالرمي من بنادقهم ، فقتل عدد من المهاجمين وجرح آخرون؛ فانتفضوا انتفاضة الأسد المذعور ، وهجموا هجمة واحدة على الشرطة المنبطحين أرضاً وقتلوهم جميعاً ، ثم تنادوا فيما بينهم بنداء النصر، واجتاحوا المركز ،وفرّ المدير وبعض أعوانه، وألقي القبض على

بعض الشرطة المختفين في داخل المبنى، وجرت لهم محاكمة صورية سريعة لم تتعدّ نصف ساعة ، وصدر الحكم بإعدامهم رمياً بالرصاص ، ونُفّذ الحكم فوراً في وسط الشارع المقابل للمبنى بعد أن شدّوا أيديهم من خلف الى أعمدة الكهرباء، ونهب ما في (مَشْجب) المركز من سلاح وذخيرة، وعاد الجمع يهتف باسم الزعيم ، وتوزعوا على أطراف الكاظمية من جهة جسر الأئمة ، لأن الأخبار أفادت أن لواءً مدرعاً من الأعراب يروم الزحف نحو الكاظمية عابراً جسر الأئمة من جهة الأعظمية.

اتجهت الى تلك الناحية لأشاهد ما قد يحصل ، تحصّن المدافعون ببساتين الكاظمية المحاذية للشراع الرئيس الممتد بمحاذاة البساتين ونهر دجلة ،وهو الشارع المسمى بـ ( شارع المحيط) ، وظهرت أولى الدبابات ، وهي تعبر على جسر الأئمة متجهة نحو مدينة الكاظمية حتى تجاوزت منتصف الجسر، فبدأ إطلاق النار من الطرفين ،وتمكنت دبابتان من الوصول الى نهاية الجسر ، وإذا النار تندلع فيهما ، لأن المهاجمين قد عبّأوا زجاجات كبيرة بالبنزين، وأخذوا يشعلونها بفتائلها ويرمون بها الدبابتين . وهذا السلاح البسيط يعرف في عرف ( المليشيات) بقنابل ( المولوتوف) ، وكانت إحدى وسائل الدفاع عند المقاومة الشعبية للروس تجاه زحف القوات الألمانية في الحرب العالمية الثانية .

وبعد احتراق أعالي الدبابتين أجبر الدخان المتصاعد منهما الجنود فيهما على الخروج ، فتناولهم رصاص المدافعين ، واردوهم قتلى. وكان هذا الحدث سبباً لتأخر زحف كتيبة المدرعات عبر الجسر حتى حلول المساء، وحينما حلّ الليل زحفت الكتيبة ودخلت المدينة ، وقتلت أغلب المدافعين ، وفرّ عدد قليل منهم بعد سماعهم خبر مقتل الزعيم ، ومشاهدتهم صورته مقتولاً مع بعض أصحابه في التلفزيون ، وكان الزعيم ملقىً على كرسي وابتسامة على وجهه تدل على رباطة جأشه، غير أن جنديّاً حاقداً من الأعراب تبدو عليه علامات السفاهة بصق في وجه الزعيم، وأما أصحابه الآخرون فقد كانوا جثثاً هامدة ملقاة على الأرض ، وقد عرفت من بينهم (المهداوي) رئيس محكمة الثورة ، و ( ماجد محمد أمين ) ،وقد مثّلو بهما أكثر مما يُمثّل بالكلب العَقُور.

ومن طريف ما حصل في الكاظمية في تلك الأحداث أن الجماهير اختارت حاكماً للمدينة ، والغريب أن الحاكم المختار كان (أعور) ، فدخل في نفسي الشؤم من هذا الاختيار ، فقلت : إن القوم مصيرهم الهلاك. ومن الطرائف أيضاً أن ( سيداً) أحدب بلغه مقتل أحد أصدقائه، فاجتمع أربعة أو خمسة من أصحابه لتشييع صاحبهم ودفنه، وكان صوت الرصاص وقذائف الهاون والمدفعية والدبابات قد أصمّت آذان أهل المدينة، وخلت حتى الطرقات الضيقة من المارة خوفاً من القتل. اجتمع أصحاب ( السيد) ووضعوا الميت

في التابوت ورفعوه على أكتافهم مكبّرين مُهلّلين ، والسيد الأحدب أمامهم حتى بلغوا نهاية شارع ( باب المراد ) المواجه للحرم الكاظمي الشريف من جهة ( باب المراد) ، فإذا هم أمام رتل من الدبابات إذ بدأ الرتل بإطلاق نار (الدوشكا) عليهم ، فتركوا الميت وتابوته وسط الشارع وولّوا هاربين مذعورين .

وفي إحدى الليالي ، وكانت الأحداث قد وقعت في منتصف شهر رمضان، وأغلب الناس ترك الصيام خوفاً وجزعاً ، قال لي جدي في وقت السحور : انهض وأذّن بالناس من فوق سطح الدار أذان الفجر ليعلموا صيامهم وصلاتهم ، فامتثلت لما أمرني به جدّي ، وصعدت الى السطح وأخذت معي مجلة قديمة وطويتها على هيئة بوق، وارتقيت حائط السور ، وصوت الرصاص وإطلاق القذائف أحاط بالناس جميعاً مع ظلام الليل المرعب ، فأذنت بأعلى صوتي في البوق المصطنع أذاناً على أتمه وأكمله برباطة جأش لم أرَ لها مثيلاً في حياتي ، إذ كان حفيف الرصاص من حولي مخيفاً، ولكن الخوف لم يَسْر الى قلبي، أقول ذلك غير مُدّعٍ، لأني لست من ذوي البأس والشجاعة في الحرب، غير أن شيئاً ربّانيّاً أدخل الطمأنينة في رُوعي، وهَدّأ من رَوْعي، وبذكر الله تطمئن القلوب. وكنت في شك كلما تذكرت هذا الأذان أنه لم يبلغ مسامع الجيران ، ولكن بعد شهر من حوادث شباط أخبرني أبعد الجيران أنه سمع الأذان وهو في داخل البيت .

## (العمل الشعبي) و ( قسّ بن ساعدة)

في صيف سنة (1970م) تخرجت مع زملائي بكلية الآداب في جامعة بغداد / قسم اللغة العربية. وكان عددنا لا يتجاوز الأربعة عشر طالباً وطالبة ما خلا العرب منهم والأجانب، إذ درس في ( دورتنا) طلاب من الجمهوريات الاسلامية التابعة للإتحاد السوفيتي، ومن اليمن وعدن والجزائر، وطالب من ألمانيا الغربية ، وآخر من بولندة. وكان لزاماً علينا لكي نقبل مدرسين على ملاك وزارة التربية أن نمضي عطلة الصيف في عمل من قبيل ( السُخْرة) ، أطلق عليه ( العمل الشعبي) . ويبدو أن الغرض منه لم يكن تعليمياً مهنياً ، بل كان من سياسة ( الترويض) ، وكبت المشاعر الإنسانية ، وفرض روح السلطة المتمثل بـ ( عسكرة المجتمع) .

تفرق الخريجون بمختلف أقسامهم على أعمال متفاوتة ،وكان من نصيبي مع زملائي أن نحفر أساساً لمدرسة ابتدائية ، ثم نعمل مساعدين ( للخَلْفة) رئيس العمل وعماله على رصف ( الطابوق) و ( شيش) الحديد ، ومن ثم تغطيته بالخلطة (الخَرَسانية) ليستقيم الأساس ويكون جاهزاً للبناء عليه.

وكان الوقت محدداً من الثامنة صباحاً الى الثانية بعد الظهر ، وأما أيام العمل فقد كانت ثلاثة أيام في الأسبوع متفرقات سوى يوم الجمعة .

وفي ضحى يوم من الأيام ، ونحن منشغلون بنقل الطابوق والحصى بعربات من حديد سمعنا ضجيجاً ,وأصوات سيارات مقبلة علينا، ففوجئنا بجمع من ( الحمايات) ذوي ( البدلات) الزيتونية يفرقون الجمع ويلوحون لهم بـ (الهراوات) . أنصرفت من مكاني وكنت واقفاً على مرتفع من الرمل، فإذا رجل وامرأة يخرجان من وَسْط ( الحماية) ، فعلا هتاف الحاضرين طلاباً وعمالاً ومارة من عموم الناس : يحيا فلان وفلانه : كان فلان نائباً لرئيس الجمهورية ، وفلانة وزيرة للتعليم العالي ، وهي أول امرأة تتسنم وزارة التعليم، وربما كانت ثانية امرأة تتسنم وزارة في تأريخ الوزارات العراقية قبل سقوط الدولة العراقية وانحلالها في سنة (2003 م) إثر الغزو الأمريكي.

كان الرجل طويلاً عريض المنكبين ذا قامة معتدلة ووجه ضخم ، أسمر السحنة ، منتفخ الأوداج ، غليظ الرقبة ذا عينين براقتين ترى فيهما لون الدم. وكانت المرأة على خلافه : قصيرة القامة ، نحيلة القوام ، تبدو على محياها السماحة والأريحية ، وقد وقفت بجانبه كالدجاجة بجانب (الغوريلا!!) ، لم تتكلم إلا كلمات مرحبة بنا ومشجعة بـ (قوالب الكلام) المبهرج الذي لا شِية فيه ولا طعم ولا رائحة ، وهو نهج من الأسلوب ألفناه من الانقلابيين العرب حتى مججناه.

ابتدرنا الرجل الضخم بكلمات خرجت من فمه بصوت أجشّ كأنه رُغَاء بعير ، أو خُوَار ثور ، رافعاً يديه مهدداً متوعداً بدفن أي واحد منا في أرض

البناء إن لم يعمل كما يؤمر ، ثم انكفأ مع المرأة وانصرفا مع الحرس. واللافت للنظر أن الجمع ودّعهم بالهتاف والتصفيق ، ولست أدري ما الذي جعلني استحضر في ذهني ( قُسّ بن ساعدة) خطيب العرب وحكيمها ، المُفّوه لغة وبلاغة ، وما بين الرجلين أكثر من ألف سنة ، فهل كانت الذكرى للمقارنة والمناظرة ؟!! وشَتّانَ ما هما : نجم ساطع في سماء البلاغة، وثور قابع في قصور البلاهة .

## الوقاية خير من العلاج ( مثل يضرب ولا يقاس عليه)

حكى لي المرحوم جدي أن وباء ( الكوليرا) ضرب مدينة النجف مع مدن أخرى في العراق ، في أوائل القرن الماضي؛ ففتك الوباء بمئات أو ربما بالآف الناس ، وكانت الجثث مكدسة في الطرقات ، ويسمع البكاء والعويل في كل حدب وصوب، واستقبلت المقابر ولاسيما المقبرة الكبرى في النجف ( وادي السلام) التوابيت وحشود المشيعين الذين لم ينجو منهم إلا قليل. قال : عدت الى بيت أبي ، وكنت في ذلك الحين شابّاً يافعاً لا أشكو من مرض أو وهن ؛ فدخلت الدار وإذا أمي وأخوتي خائفون يتهامسون كلمات فيما بينهم ، فأدركت أن حدثاً ما قد جرى ، وأن المصيبة قد دنت ، ولابد من معرفة ما حصل . أخبرتني أمي أن الصغرى من أخواتي أصابها الوباء، فسلمت أمرها الى الله المشافي المعافي. ولم يكن الناس في تلك الأيام يعرفون ما الطبيب ، ولا تيسر لهم معنى العلاج سوى التطبب بالأعشاب بما ينصح به الحكيم ، وهي كلمة ترادف الطبيب في يومنا هذا . كان الوقت وقت غداء ، وقد انتصف النهار ، وأوغل حرّ الصيف في الأجسام وكأن حُمّى الوباء ضاعفتها حرارة اللهب الصيفي الرملي المتوهج ، ولكني مع ذلك كله شعرت بالجوع ، فالتمست الطعام ولم أجد سوى خِوان صغير عليه كوز ماء ونصف رغيف من الخبز الأسمر المطحون بما لا يعلمه إلا الله . ضرب المجاعة في سني الحرب العظمى العالم بأسره ، وانقطعت

سبل الطعام إلا النزر القليل، وصادرت الجيوش العثمانية أغلب غَلاّت الأرض من الفلاحين. إن خبزاً كهذا مع ماء ممجوج لا يغني من جوع ثم قمت متوجهاً الى ( المطبخ) ورأيت فيه صحناً صغيراً فيه بقايا حَسَاء، وأخذت من فوري صحن الحساء وعدت الى خواني وكسرة خبزي وكوز مائي، وثردت الخبز بالحساء ، والتهمته كله ، وشربت ما في الكوز من ماء جرعة واحدة ، ثم تنفست الصعداء ، وإذا أمي وجهاً لوجه ، فصرحت قائلة : ماذا فعلت ؟ ومن أين جئت بهذا الصحن ؟ يا ويلتي هل تعلم لمن هذا الحساء ؟ قلت : لا أعلم ، والجوع لا يرحم ، فقالت : يا بُنَيّ ، وأنت أكبر أولادي ، إنه حساء اختك المريضة ، أخشى عليك أن تصاب بما أصابها. ولما سمعت هذا الكلام أُسْقِط في يدي ، وكدت أفقد حواسي من هول ما سمعت ؛ فانزويت في غرفة من غرف البيت ، وفوضت أمري الى الله ، وارتميت على حصير مرشوش بالماء لتلطيف حرارة الصيف ، ونمت كالمغشيّ عليه.

ومرت ساعات من النهار ، وأنا نائم، الى أن استيقظت فجأة على صوت البكاء والصراخ ، فخرجت من الغرفة مفزوعاً استعلم الخبر ، فرأيت أمي وأخوتي وأخواتي قد أحاطوا بالمريضة ، وهي تجود بأنفاسها الأخيرة ، ولم تلبث إلا قليلاً وسلمت سرّها الإلهي الى بارئها .

أيقنت أني لا محالة – ميت ، فوليت مُدْبراً تاركاً البيت ، لا أدري الى أين أسير ، وبقيت على هذه الحال منتظراً الموت حتى سمعت المؤذن يؤذن لصلاة المغرب، فجلست في ( صحن) الروضة الحيدرية داعياً الله تعالى أن يدرأ عني سوء البلاء .

أخذني النعاس مأخذ المتلبس بخطوات الموت ، ولم أفق إلا على صوت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر . تحسست جسدي لأعلم أأني من الأموات ؟ أو من الأحياء ؟ أو من الذين بينَ بينَ ؟ وكنت على هذه الحال ، وإذا يد تضرب على كتفي ، وسمعت صوت أبي ، وهو يقول : قم يا حسن صَلّ الفجر ثم لنذهب الى وادي السلام لنواري أختك المرحومة في التراب ... وهكذا نجوت من موت محقق .

بقي جدي طوال حياته لا يؤمن أبداً بالمقولة المشهورة : ( الوقاية خير من العلاج) .

# هزيمة الدبّابات بمسدس رئيس ( الجمهورية)

من علامات سذاجة الشعوب ولا سيما شعوب ( الشرق ) أن تجد لها موطئاً مع الجن والعفاريت ، والمغالاة في الأراجيف، وتصوير الأوهام بصور الوقائع والحقائق. ومن جملة ذلك أن في منتصف الستينيات من القرن العشرين شهد العراق ( انقلابات عسكرية) ، بين الواحدة والأخرى أشهر ، منها ما يعلن عنه ، وهو القليل ، ومنها ما يظل في طيّ الكتمان وهو الكثير.

كنت جالساً في مقهىً من مقاهي الكاظمية في عصر يوم صائف ، وفجأة رأيت الجالسين يُهْرَعون الى ( التلفزيون) الذي قطع برنامجه ليذيع خبر فرار قائد القوة الجوية، وأن مؤامرة استهدفت النظام أُحْبِطت بفضل (الشرفاء) من قواتنا المسلحة ، ثم عاد المذيع بعد قراءة البيان الى استكمال البرامج المعتادة ، وعاد رواد المقهى الى أماكنهم يتهامسون ، وبقيت جالساً أقرأ كتاباً عن ( الجزيرة العربية ) منزوياً عن الناس . وبعد مرور ساعتين أو أكثر دخل المقهى رجل طويل القامة ، خفيف الجسم ، يلبس ( الصاية) من غير ( عباءة) ، وقد تعمم على طريقة أهل بغداد بـ ( اليشماغ) الأبيض المرقط بالأسود ، وقد لفّه على رأسه بما يصطلح عليه بـ(العصفورية) ، وهي هيئة في اللفّ لها دلالة مخصوصة لا أعلم بها الى الأن . اقترب الرجل من رجلين جالسين يعلبان بالنّرْد ( الطاولي) ، وعلا صوتهما :

(شيش – دو – دوشيش ... الخ ) فسلّم عليهما مضطرباً مرتعشاً من خوف أو غيره ، لا أعلم . ردّا عليه السلام ، وطلبا منه الجلوس فجلس، فقالا له تحية الترحاب البغدادية المألوفة : ( الله بالخير) ، فردّ عليهما بمثلها متلهفاً ليخبرهما الخبر العتيد . قال الرجل : هل سمعتم البيان ؟ فأجابا : نعم ، قال : أتعلمان ما الذي حدث؟ فقالا لا نعلم أكثر مما سمعنا . قال – وكأنه عليم بخوافي الأمور ، وقد مد يده الى (جرّاويته) يزيدها ميلاً الى اليمين : إن انقلاباً قد حصل ، وحاصرت كتيبة من الدبابات القصر الجمهوري ، ولما أخبر الحرس رئيس الجمهورية خرج من فوره شاهراً ( مسدسه) صائحاً أين أنتم أيها الخونة ؟ ورأى رتلاً من الدبابات قد أحاط بالبوابة الرئيسة للقصر ، فهجم على الرتل وأطلق عدة (عيارات نارية) متوعداً جنود الدبابات وقائدهم بالويل والثُّبور ، وعزائم الأمور ؛ فلاذ هؤلاء بالفرار خوفاً من العقاب، وفشل الانقلاب ، وخاب المنقلبون .

# الطرَب وحرب العرب

كنت صبيحة يوم من شهر حزيران سنة (1967م) في مقهىً مخصص للطلبة ، أغلبهم من طلبة الجامعات العراقية ولاسيما جامعتي العاصمة بغداد ، وسمي هذا المقهى تبعاً لمن يجلسون فيه للمدارسة والمذاكرة بـ (مقهى الجامعة = كازينو الجامعة) . كان المقهى في مدينة الكاظمية على مشرفة من الساحة التي تطل عليها متوسطة الكاظمية للبنين التي ما تزال قائمة الى يومنا هذا ببنائها القديم السقيم ، وكأنها خربة في ديار بني عبس. كانت الساعة على ما أذكر قريبة من العاشرة صباحاً ، فوجئنا جميعاً بانقطاع برامج الإذاعة إذ ينبري المذيع ليذيع خبر اندلاع الحرب ، وهجوم جيش (الدفاع الإسرائيلي) واكتساحه ثلاث جبهات عربية موزعة على جبهة سيناء للجيش المصري وجبهة شرق الأردن للجيش الأردني، وجبهة هضبة الجُولان للجيش السوري . وأعقب إعلان الخبر كالمعتاد أناشيد حماسية و(مفرقعات أخبارية) تبشر بالنصر المبين للعرب على اليهود، وسقوط عشرات الطائرات ، وتدمير مئات الدبابات وعرابات الجند ، وقتل الألوف من الإسرائيليين ، وأسر المئات منهم ... وهكذا دواليك تتصاعد الأرقام ، وتبح الحناجر ، وكأنّ المعركة في الإذاعة وليست في سوح الوغى .

ترك الطلاب كتبهم وتحلّقوا حول ( الراديو) ليسمعوا المزيد . عدت من المقهى مسرعاً الى بيت جدي ، ورأيته جالساً في وسط الدار ، فبادرت إليه

بالكلام، وأخبرته بما سمعت ، وفتحت المذياع القديم من سلالة الثلاثينيات ذا العين الخضراء ( السحرية)، وكان جدي – رحمة الله – لا يسمح بتشغيله إلا ليلاً ، وليستمع الى إذاعة لندن العربية ، وإذا ما دقت ساعة (بغْبن) معلنة ساعة إذاعة الأخبار المفصلة الموافقة للساعة العاشرة مساءً بتوقيت بغداد أطلّ المذيع بصوته العالي المتزن ليقول : ( هنا لندن) ، وأسمع على فوري العبارة المعتادة لجدي : ( الله يهجمه) .

أدرت مؤشر الإذاعات ، والتقطت إذاعة ( صوت العرب) من القاهرة ، عندها ظننت أني دخلت المعركة من أوسع أبوابها ، أي من الإذاعة (اللاسلكية ) : رنة الطبول ، وأناشيد الحماسة لا تنقطع إلا برهه من الزمن ليعلن المذيع بصوته (الجَهْوَريّ إسقاط المزيد من طائرات (الميراج ) الإسرائيلية :عشر طائرات .. عشرون طائرة ... ثلاثون ... أربعون ... وهكذا ) يسقط ما يشاء منها ، وكلما زاد العدد علا صوته حتى بَحّ من الكلام الذي تحول الى صُرَاخ ، و(عبدالحليم) ينشد : اذبحْ اذبحْ، وفلان ينشد : لبيك يا علم العروبة ، وتجمع المطربون والمطربات ، والمنشدون والمنشدات لتكوين ( فيلقهم ) المقاتل . كنت أُصدّق ما أسمع ، أو ما أرغب في سماعه بغض النظر عن حقيقة ما يجري. إلتفت الى جدي الذي سمح لي بسماع المذياع ، فقال معلقا على ما يحدث عبارة واحدة : ( هل بدأ الفرهود ؟) ، ويعني به السلب والنهب من غنائم ( دار الحرب ) ، فأجبته:

لا، لأن رئاسة أركان جيوش الإذاعات العربية لم تعلن ذلك ، ولا أظن أن سلباً ونهباً قد حصل .

وبقيت إذاعة صوت العرب على هذه الوتيرة ، تُسْقط الطائرات بالعشرات ، وتقتل من اليهود ألافاً مؤلفة ، وتأسر منهم المئات ، وقلت ، وقال من سمعوا ذلك كله : الحمد لله الذي نصرنا بنصره ، وأيدنا بجنده . وبدأت الصدمة المُروّعة منذ اليوم الثالث ، إذ خفّت الأناشيد ، وبدأ الجهر يتحول شيئاً فشيئاً الى همس ، وافتقدنا جميعاً مذيع صوت العرب الذي أسقط المئات من طائرات الميراج الفرنسية الصنع ، وخيّم الحذر على ما يذاع ، واستعد ( الأشاوس) للكشف عن الحقيقة المرعبة التي أخزت العرب الى يوم يبعثون ، فانبرى مذيع جديد ، وأعلن بصوت منخفض منكسر تسمع في نبراته الحزن الممزوج بالذلّ والصَّغَار ، وأعلن ( إعادة انتشار القوات المصرية والأردنية ) ، وهذا يعني بالمدلول العسكري الهزيمة والانسحاب من خطوط الهجوم الى خطوط الدفاع . أيقنت حينها أن الحرب انتهت ، وأن الجيوش العربية سحقت كلها على بَكْرة أبيها ، وأن ما سمعناه كان هذياناً ولغواً باطلاً ، فأُسْقِط في أيدينا جميعاً.

وبعد غياب شمس اليوم الخامس من المعركة تواترت الأخبار في الإذاعات الأجنبية عن سيطرة الجيش الإسرائيلي على الضفة الغربية لنهر الأردن كلها وبضمها القدس الشرقية والمسجد الأقصى ، وشبه جزيرة سيناء ،

وهضبة الجولان ، وأصبح العدو على مقربة من ثلاث عواصم عربية : (القاهرة – عَمّان – دمشق)، وسمعنا أيضاً أن مذيع صوت العرب ذا الصوت الجهوري الذي ملأ آذان الناس صراخاً قد ولّى هارباً ، وأذكر أنه كان يسمى بـ ( احمد سعيد ) – إن لم تخني الذاكرة - : اسم على غير مسماه ، فلا هو أحمد ، ولا هو سعيد ، بل هو المذموم الشقيّ .

وشاع خبر بعد سنين بعدما انكشف المستور أنه كان من عملاء المخابرات الإسرائيلية ( الموساد) .

وللحديث صلة ، إذ التقيت في القاهرة سنة (1977) على ما أذكر ( عقيداً في الجيش المصري) ، وروى لي ما رآه ، ويا ليتني لم أسمع منه ، إذ امتلأ قلبي قيحاً ، وعصر الهمّ والغمّ فؤادي حتى كاد قلبي ينقلع من جوفي ألماً، قال لي هذا العقيد : كنت في جبهة سيناء ، في الخط الهجومي الأول ، وكانت الدبابات والمدرعات وناقلات الجند وغيرها من عدة الحرب المصرية مكشوفة جهاراً نهاراً في الصحراء ، وكأن الذي أمر بذلك أعدّها للعدو ليحرقها حرقاً مُدمّراً ، وكنا قبل المعركة بأسابيع قد احتشدنا مع آلاف الجنود في أرض مكشوفة من غير تغطية جوية دفاعية ، نسمع طوال الليل في (الميكروفونات) الموزعة بالمئات على قطعات الجيش تنشد لهم الأناشيد الحماسية ، وإذا ما انتصف الليل أذاعوا لهم أغاني ( أم كلثوم ) ، وهي الأغاني التي قال عنها أحد عتاة ( الحشّاشين) إنها مُغْرية بتعاطي الحشيش ومُرغّبة فيه ، والحشيش بلاء عظيم شجع الانكليز على إشاعته بين الناس

عندما كانت مصر مستعمرة لهم لتخدير حواسّ الناس عن واقعهم المأساوي، ويعلم من له الدراية أن الحشيشة في مصر يتعاطاها الرئيس والخسيس.

أردف العقيد قائلاً : لقد نجوت بمعجزة ، وبقيت أجوب الصحراء ، تائهاً ، وكدت أموت من العطش ، الى أن عثرت عليّ ناقلة للجند إسرائيلية فأسرتني، ومكثت في الأسر شهوراً الى أن أُفْرِج عني مع جماعة من الأسرى، ولا أقول ( التبادل بالأسرى) ، لأنهم كانوا جميعاً من المصريين ، وليس للإسرائيلين أسير واحد. وأنهى حديثه بقوله : كانت جثث الجنود والضباط المصريون بالآلاف ملقاة في العراء ، في صحراء سَيْنَاء ، تناوشتها الجوارح والسباع ، وعَفَتْ على آثارها كثبان الرمال .

# المترجمة يغشى عليها

بَلّغنا ديوان رئاسة الجمهورية بضرورة اختيار عدد من المترجمين في لغات أوربية وشرقية تناط إليهم مهمة ترجمة كلام الموفدين الرسميين الأجانب ، ولاسيما ما يدور من حوار مباشر بينهم وبين مسؤولين عراقيين من أعلى المراتب الى أدناها.

وكنت في حينها أشغل رئاسة قسم في كلية اللغات، فأرسلت عمادة الكلية الى ديوان الرئاسة أسماء المرشحين الذين تم اختيارهم للقيام بهذه المهمة حين الطلب ، ولم أكن واحداً منهم.

إن في العرف ( الدبلوماسي) العالمي ينبغي للمترجم أن يكون متضلعاً من اللغة التي يترجم منها ، وعلى قدر يفي بالغرض من معرفة قواعد لغته الأم التي يترجم إليها ، غير أن هذا الأمر ليس بالشأن الخطير إذا ما قورن بما هو أهم ، وهو حصافة المترجم ، ودقة ترجمته ، وسرعته في الترجمة ، وإيصال الكلمات بمضامينها ودلالاتها الواضحة التي لا تقبل اللُّبْس والإيهام والتأويل . وهذا شأن لم يصل إليه علم الدلالة العام من قواعد ثابته، ولا يمكن أن يصل الى ذلك ؛ فالدلالة لها عالمها الخاص المعقد لارتباطها ليس باللغة فقط وإنما بكثير من المسائل ذات الصلة بقضايا أخرى غير اللغة لا أرى من المفيد ذكرها فيما نحن فيه .

ومن طريف أخبار الترجمة والمترجمين أن شخصية من كبار مسؤولي إحدى الدول زارت العراق والتقت رئيس البلاد ، واختار ديوان الرئاسة من بين الأسماء مُدرّسة في منتصف عمرها . توجهت هذه المسكينة (المفلوكة) بسيارة خاصة الى حتفها ( المعنوي) ، ودار الحديث كما علمت فيها بعد عن وجهات نظر ربما كانت ستؤدي الى توقيع ( مذكرات تفاهم ) بين الطرفين ، وكان الأمر مهما كما يبدو من النتيجة ، إذ يقول أصحاب المنطق إن المقدمة الصحيحة تؤدي الى نتيجة صحيحة ، والعكس بالعكس. القصه كما ذكرها الراوي – والعهدة عليه – أن المترجمة بدأت لتترجم من الأجنبي الى العربي ما يراد تبليغه وإيصاله ، ولما التفتت الى وجه (المتلقي) ملأها الرُّعب ، وانعقد لسانها ، ونسيت حتى اسمها ، وسقطت على الأرض مغشياً عليها . والأطرف من ذلك أن الرجلين بادرا مسرعين الى كأس من الماء يسعفانها . وانتهى اللقاء على هذا النحو ، وكان لقاءً في كيفية إجراء ( الاسعافات الأولية) في الأوقات الحرجة ، وليس لقاءً تشاورياً في مسائل سياسية واقتصادية بالغة الأهمية .

## (منصورية الجَبَل ) و ( رقصة الجَمَل)

سمعت مقولة من زعيم شرقي وافاه الأجل منتقداً جيش بلاده، وواصفاً إياه بأنه ( جيش عَرْض واحتفال، وليس جيش حرب ونضال) . ذكرتني هذه المقولة بما حدث عندما التحقت عُنْوةً بالخدمة العسكرية في آواخر حرب العبث والدمار بين العراق وجارته.

كنا مجموعة من مواليد (1948م) الذين استبعدوا عن أداء الخدمة العسكرية لدفعهم ما يسمى بـ ( البَدَل النقدي) ، غير أن أحد الضباط المشاكسين تمكن من إقناع رئاسة أركان الجيش بضرورة تجنيد دافعي البدل النقدي ، وإرسالهم الى ( مصانع الرجال) ، وهي التسمية التي كانت تطلق على مراكز التدريب العسكري .

وكان من نصيبي مع صحبتي من مواليد (1948م) أن نُرْسل – أو بالتعبير العسكري ( أن نُسَاق) وكأننا غنم أو بقر – الى ( منصورية الجبل) ، وفيها مركز تدريب قديم يقع في شبه وادٍ كبير تحيط به من بعض جوانبه سدّات ترابية لمنع الجنود من الفرار . أمضيت في هذا المركز أربعين يوماً ، وكأنها أربعون سنة عجافاً ، نحضر في ساحة العرضات في الساعة السابعة صباحاً بكامل الهيئة و ( القيافة) موزعين على فصائل يقودها ( ضباط صف ) ، وهم دون الملازم كنائب العريف ، والعريف ، ورئيس العرفاء ،

ونائب الضابط . وبعد أن يتفحص آمر كل فصيل جنوده ، تبدأ جوقة من صغار الجنود ذوي الطبول والأبواق بعزف الموسيقى العسكرية، وتتبعها الفصائل مارة أمام مبنى القيادة ، إذ يقف آمر المعسكر والضباط ليروا كيف يستعرض الجند؟ وكان فصيلي في آواسط القوم ، وعندما دنونا من (شرفة العرضات) سمعنا صوتاً بالميكرفون يأمرنا بالوقوف ، فوقفنا خائفين، لأن المخالفة كانت تعني العقاب ، والعقاب يعني الزحف على البطن ، أو الوقوف على رجل واحدة نصف ساعة أو أكثر ، أو الهرولة من أدنى الميدان الى أقصاه مرات عديدة، وربما يؤدي في بعض الأحيان الى تنظيف ( المزابل) و ( المراحيض) . هذا إذا لم يكن قد زار المعسكر أحد ضباط أركان العمليات الذين كانوا يباغتون المعسكر في بين الحين والآخر ويختارون من الجنود ما يرونهم مناسبين لأعمال السخرة ، وإيصال (القصعة) أي الطعام الى خطوط الجبهة الأمامية ، أو حمل صناديق العَتاد الثقيلة وإيصالها الى المقرات الأمامية.

صرخ الضابط المذكور آنفاً : ما هذا الفصيل ؟ وأين آمره ؟ ومن المأمورون من الجنود؟ ... إنهم يرقصون ، والله يرقصون ، ولا يستعرضون كما يستعرض الجند ، فأمر بالعقاب ، وكان العقاب الركض السريع من أول الساحة الى آخرها ، وقد وضع في أقصاها نُصْب عليه صورة رسموها كصورة الشيطان ، وينبغي للجندي المُعاقب بالركض أو الهرولة أن يصل

إليها ، ويضربها بيده ، أو يبصق عليها . ووالله ما كنت لأفعل ذلك بل كنت أترحم على صاحب الصورة لأن مقامه أسمى بكثير من هؤلاء الحمقى، وإن كانت المقارنة بحدّ ذاتها لا تجوز...

# تدريب النسوان و ( مِدفعيّة) أبي حسّان

من آفات الأنظمة غير الحكيمة تذرّعها بأساليب متنوعة لتلهية رعاياها وشعوبها بضروب مختلفة من التوجه الى ( مركزية) القرار بما يخدم مصالح الحكام. إن المركزية هذه تتخذ ذريعة لإيهام الناس بالمخاطر المحدقة بالبلد، وسبل توخيها أو صدها إذا وقعت .

ومن الخطأ جعل ( الاستقطاب) السياسي مقتصراً على الأنظمة التي توصف في المصطلح السياسي بالأنظمة ( الشمولية ) أو ( الدكتاتورية) ، إذ ينحو هذا المنحى الكثير من أنظمة الحكم التي توصف اعتباطاً بـ(الديمقراطية) . وكلمة الديمقراطية خصوصاً من الألفاظ ( المائعة) بحسب التعبير الفرنسي ، أو قُلْ : من الألفاظ التي تحتمل النقيضين والضدّين؛ فهي ذات دلالات ( متموجة) في ظلالها المعنوية . وأثبتت الوقائع أنها من بضاعات الأسواق الكاسدة التي يصدرها الى الشرق حكام الغرب، وتجار (الشعارات) ، وأرباب الشغب والعبث بأسماء وأوصاف ( برّاقة) طَنّانة تستميل السُذّج من الناس ، أو ذوي ( العاهات) النفسية من الأفراد الذين لا يروق لهم إلا الفساد والإفساد وإشعال نيران الحروب والفتن ، والاقتتال بين البشر ، ناهيك عن جرائم القوى الكبرى المهيمنة على سياسات الدول.

ومن أساليب خداع العامة الأخذ بسياسة ( عسكرة المجتمع ) من غير مسوغ واقعي يستدعي ذلك ؛ فبلد كالعراق في الثمانينيات تجاوز عدد جيشه المليون من الرجال، فلماذا يحتاج الى زجّ النساء – مثلاً- في معسكرات التدريب؟

وحصل ما حصل بذريعة الحرب المستعرة في تلك السنين ، وسيقت بعض النسوة الى تلك المعسكرات عنوة او بَطَراً أو لمحض ( الدعاية ) الموجهة.

وأخبرني بعض الأخوة عن فصيل من موظفات الدولة سيق كما تساق النعاج الى أحد المعسكرات ، وهُيّيء لهن الزي العسكري الرجالي ، فلبسن ما يلبس الجنود ، وفوض أمر التدريب كالمعتاد لكل فصيل الى ( عريف) في الجيش يقوم بالمهمة . وكان المنهاج الحضور صباحاً ، والقيام بما يُوَعز إليهن من أداء ( التحية ) العسكرية ، والسير الاستعراضي مع ضرب الطبول ونفخ الأبواق.

كان (أبو حسان) واحداً من هؤلاء العرفاء ، رجل في الأربعين من سني عمره، مربوع القامة ، أسمر الوجه ، مفتول الشاربين ، ذو بطن كبيرة كأنها منتفخة الى الأمام ، وقد شدّ على وسطه (النّطاق) شدّاً مُحْكمَاً ، بدا وكأنه مضغوط الوسط لا يملك لنفسه دفع ما قد يحصل في جوفه من كثرة أكل ثريد الباقلاء مع البيض المقلي بالدهن ( الحُرّ) .

توجه أبو حسان في صبيحة يوم من أيام التدريب الى ساحة العرضات ، وحضرت النسوه مصطفات معتدلات ينتظرن الأوامر ، صاح أبو حسان : كيف تؤدّى التحية العسكرية ؟ فبادرت النسوة الى أدائها على نحو مثير للضحك، فغضب أبو حسان ، وصاح بهنّ : ليست هكذا تؤدى التحية ، انظرن إليّ بإمعان وتعلمن كيفية أداء التحية ، ثم وقف في حالة الاستعداد: وصفّ قدميه، وبسط ذراعيه ملصقاً كفّيه بجانبيه ، ثم رفع يده اليمنى مبسوطة الكف الى الأعلى محاذية ( للبيرية) بقوة مع رفع رجله اليمنى الى الأعلى ، وضرب بها الأرض ضربة قوية . وهنا وقعت الواقعة ، ويبدو أن الباقلاء فعلت فعلها ، وتحولت بطنه الى مربض مدفعية ( خلفية ) لا (أمامية) ، وكانت الرمية مدوية سمعها فصيل النساء كله ، وربما تجاوز الصوت الى فصيل آخر . وجمت النساء هنيهة ، ثم علا صوت الضحك يملأ الأسماع ، وأبو حسان يلتفت يَمْنَة ويَسْرة خجلاً مما فعل ، والأغرب من ذلك كله أنه صاح بهن يأمرهن بالسكوت ، وبعد دقائق التفت الى الفصيل ، وصاح : ( فصيل الى اليمين دُرْ ... عادةً سِرْ) ، فسار الفصيل يتقدمه أبو حسان ، وهو يفتل شاربيه وكأنه راجع من ميدان المعركة وعلى رأسه إكليل النصر ، هكذا هي حرب النساء في تلك السنين ، والنصر المُؤزّر لأبي حسان صاحب الباقلاء بالدهن ( الحُرّ) .

# (الشايب) في رئاسة أركان الجيش

في سنة 1986م اقتضت مهمات بعض القادة العسكريين استدعاء دافعي البدل النقدي من مواليد (1948/1947) للخدمة العسكرية ، وكنت من بين هؤلاء الذين سيقوا الى الخدمة مكرهين ، لأني كنت أعلم علم اليقين أن لا حاجة الى أمثالنا في القتال، ونحن عُزّل، وقد تجاوزنا مراحل العمر إلا حاجة في نفس هؤلاء القادة . كان أغلبنا يشكو من أمراض المفاصل ، والسكري ، وارتفاع نسبة الدهون في الدم ... الخ . سلمت أمري الى الله تعالى ، وقضيت مدة التدريب ، وانتدبت لإتمام الخدمة الى رئاسة أركان الجيش ، وباشرت فيها العمل الإداري في تصحيح الكتب الرسمية ، والبلاغات العسكرية ، وأوامر نقل ( المراتب ) وانتقالهم ... الخ . كانت رئاسة أركان الجيش تشغل مبنىً مؤلفاً من ثلاثة طوابق ، يتوسط وزارة الدفاع في منطقة باب المعظم . وكانت الوزارة تضم مجمعاً من المباني على أرض واسعة تمتد الى ضفة نهر دجلة ، وهي من المباني القديمة ، صمم مدخلها الرئيس على غرار المباني الانكليزية ، ويشتمل هذا المجمع الكبير على مخازن وأروقة قديمة ، وغرف واسعة مكتظة بسجلات العسكريين النظاميين على مختلف رتبهم منذ تأسيس الجيش في بداية العشرينيات من القرن الماضي .

كان المشرف على عملنا نائب ضابط، وكان جناحنا وما فيه من غرف ومراتب يرتبطون من حيث تسلسل الرتب بضابط رتبته ( عقيد أركان ) ، وترتبط الدائرة كلها بمساعد رئيس الأركان للشؤون الادارية ، الذي اتخذ من الطابق الثاني مقراً له . وهو رجل برتبة (فريق) ، معتدل القامة ، ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، نحيف الجسم ، سيء الخلق ، لا يطيق أحداً ، ولا يطيقه أحد، عصبي المزاج ، بذيء اللسان ، كثير اللغط . وأكثر ما كان يغيظني فيه كثره سبابه وشتائمه ، واعتدائه بالضرب حتى على ذوي الرتب العالية ، فكيف بالجنود المساكين أمثالنا ؟

وكثيراً ما كنا نسمع صراخه وشتمه وسبابه بأقذع الألفاظ ،ولم يتورع عن لفظ منكر يمس الذات الإلهية المقدسة ، وكنت أدعو الله تعالى عليه بالذلّ والهَوان ، إذ كان من المتكبرين المتجبرين الذين ينازعون ( رداء الله ) : الكبرياء والجبروت . ودارت عليه الأيام دورتها ، فأذاقه الله طعم الهزيمة والخِذْلان في حرب الكويت.

رجل كهذا لا يمكن لأحد إلا أن يخافه ويمقته ، ولا أقول : يهابه، لأن الهيبة قرينة الوقار ، لا يتصف بها إلا الألمعيّ من الرجال فِطْنة وخُلُقا وحكمة . جاء في صبيحة يوم من أيام الصيف نائب الضابط ( عدنان ) ، وقد غمره الحزن المشوب بالحذر والخوف . قال لي مرتجفاً : أمرني القائد أن أبلغك فوراً بالحضور في غرفته ، وإني لأخشى عليك من الأذى ؛

فقلت: أمر يثير الريبة والخوف معاً. ماذا يريد مني ؟ قال : لست أدري ، ولكنه أكد الإسراع بإحضارك ، وأمرني أيضاً أن أكون بصحبتك ؛ فأدركت أن خوف ( عدنان ) لم يكن خوفاً إلا على نفسه . قلت له : لنذهب والله المستعان، فصعدت وإياه متثاقلين تموج في رؤوسنا أخيلة مخيفة لما سيلحق بنا على يد هذا الجبار الفاسق . وما كدنا نصل الى غرفته حتى رأيناه أمامنا فجأة. تملكنا الرعب ، وأدينا له تحية لا أظن أحداً قد أداها له من قبل ، إذ كانت ضربة حذائينا على الأرض من الشدة أثارت استغرابه ، فابتسم ، وربما كانت أول ابتسامة وآخرها ، وكان المعتوه المتكبر قد استراح الى مثل هذه التحية ، وتخيل نفسه كالزعيم النازي ( هتلر) وقد دخل عليه كبار قادته ، وأدوا له التحية الهتلرية المعروفة بضبط إيقاعها، وشدة وقعها. ابتسم الرجل وأدار وجهه تجاهي وقال : (يا شايب) أريد منك كتاب (الأحياء) للسنة الإعدادية السادسة ، لأن ابنتي أضاعت كتابها ، وهي تستعد للامتحان الوزاري العام ( البكالوريا) ، ثم تركنا وعاد الى غرفته .

أحسست بالعرق يتصبب على جبيني ولكنه عَرَقٌ باردٌ خفف عني هول الحدث. وأما ( عدنان) فقد فغر فاه برهة من الزمن ، ثم عاد الى رشده ، وتركني يهرول مسرعاً ، لا أعلم الى أين ؟ ولكني علمت بعد ذلك أنه توجه الى( المرافق) خشية أن يبول على نفسه ..

# الموت و ( الرقص على البارود )

الحرب من أسوأ الكوارث على الإنسان والإنسانية ، وقلما نجد حرباً تُشنّ أو يُضْطَرّ إليها لمسوغات أخلاقية ؛ فالبشرية مهما تقدمت بها العصور ، وبلغت فيها الحضارات شَأْواً بعيداً بقيت على ديدنها المتوارث منذ أجيال ما قبل التاريخ ، وأعني بذلك وحشية قتل نظيره في الخَلْق من غير حق. وأول جريمة حدثت كما ذكرت في الكتب المقدسة هي جريمة ( قابيل) إذ قتل أخاه هابيل لا لشيء سوى أنهما قَرّبا قُرْباناً الى الله فتُقّبل من أحدهما، ولم يُتقّبل من الآخر لسوء طوّيته، إذ مسخ جوهره بأرذل الصفات ألا وهي (الأنانية) ، فما دام ( الأنا) متحكما بالإنسان يُسيّره على هواه لم يلتفت الإنسان الى جزئه الحيواني المتوحش . ولو قرأنا أسطر التأريخ لوجدنا الأعّم الأغلب من الملوك والأمراء والقادة سفكوا دماء ملايين الناس إرضاءً لشهوات ( الأنا) هذه .

ورأيت وسمعت في حرب الخليج الأولى ما يعجز عن وصفه اللسان ، وتتبرأ منه ذِمّة الإنسان السويّ : قتل وتحريق ودمار من السماء ، وفي الأرض، عشرات الألوف يقتلون ويبادون ، وتلتهم الصحراء جثثهم كما تلتهم النار الهشيم ، لا لشيء سوى إشباع لهوى حاكم معتوه ، أراد أن يعلو في الأرض بدماء الأبرياء المساكين الذين أفقرهم جوع ( الحصار) ، وبَطْش ( الكُفّار)، أفقرهم في كل شيء ، في الطعام ، والملبس ، والصحة ، والأمان ، وأشد

من ذلك أفقرهم في أنفسهم وخُلُقِهم وعُرْفهم ودينهم وصِلاتهم الاجتماعية ، وعدّد ما شئتَ تراه مناسباً في مواضعه من الكلام .

ويستحضرني في هذا المقام مثل من الأمثال الشرقية مفاده ( أن لا مشيئة لك تجاه السبع المفترس سوى التسليم ) ، فإما النجاة بالكيد وحسن التدبير، وإما الموت ، هذا إن كنت مضطراً لمواجهته ، فكيف بك لو أتيت إليه طَوْعاً لا كَرْهاً ؟

في منتصف الليل أو بعدها بقليل سُعّرت الجحيم في سماء بغداد وأغلب المحافظات، وتبدل الليل نهاراً من شدة قصف الصواريخ والطائرات ؛ فدمرت أغلب المباني الحكومية ، والجسور والطرقات الرئيسة ، ومخازن الحبوب ، ومحطات الوقود ، ومحطات توليد الطاقة الكهربائية وضخ المياه، ناهيك عن إحراق معسكرات الجيش ومخازنه ، والفتك بفرقه وألويته وأفواجه، الواحدة تلو الأخرى ، وانتشرت جثث الجنود والمارة من سواد الناس في الشوارع والطرقات والمعابر ، ولا تسمع في جو السماء غير أصوات القصف، ولا ترى غير النار في كل مكان ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الحرب لشديد ، وكأن صوت القصف ورائحة الدخان والبارود وما لا يعلمه إلا الله والقتلة المجرمون من أسلحة فتاكة تجرب على رؤوس أبناء الشرق كما تجرب المواد الكيميائية وغيرها في ( مختبرات )

التجارب ، كأن ذلك كله مع الوقع الصوتي الشديد الصادم للأذنين والعينين ( رقصة الموت على جبل البارود ) .

# فلاح يقنص ( طائرة)

تشيع في أيام المحن والشدائد والحروب شائعات ، بعضها من باب التخفيف، وأخرى من باب التهويل ، ولكن الذي يعنينا – في هذا المقام – انتشار شائعات تثير الضحك مع الاستغراب من سذاجة مروجيها ، وتصديق المتلقين .

انتشرت في حربي الخليج الأولى والثانية أخبار تروج للنصر المزعوم ، كأن يقال – مثلاً – إن القوة الجوية الضاربة للحلفاء قد شُلّت بعد إسقاط جيش البلد ( أم الطائرات) ، والمقصود بذلك الطائرات التي تزود المقاتلات بالوقود في جو السماء ، واختيرت التسمية وكأن ( الطائرة الأم) ترضع أطفالها الصغار .

وفي ظهيرة يوم من أيام الحرب رأيت عجوزاً تنتقل من بيت الى آخر لتخبر عن أن الجيش أسقط (الأم) وقتلها ، وبقيت أطفالها من غير رضاعة ، وبحكم المألوف في سُنّة الرضاعة أن الطفل يبقى جائعا ، وبما أن الوقت وقت حرب ودمار ، ولا توجه للناس إلا تفادي الأضرار ، وحفظ أنفسهم من الهلاك ، فإن النتيجة ستكون حتما هلاك الأطفال ، وهكذا سيتحقق النصر المبين لمن لا يملكون شيئاً من القوة إلا الكلام . ومن جملة ما قيل إن قائداً عسكرياً قاد لواءً من القوات الخاصة ، وهجم على قوات إنزال

أمريكية في ميناء ( الأحمدي) ، والغريب أن هذا القائد – كما أفادت الشائعة– تصدر القوة المهاجمة شاهراً سلاحه وهو حافي القدمين ، ولست أدري كيف يكون حافي القدمين في صحراء يتوهج فيها الرمل والحجارة كأنها حَصَبُ جهنم ؟!!!

وما أثار ضحك أغلب الناس أن رُوّج لشائعة مفادها أن فلاحاً في الستينيات من عمره أسقط طائرة ( هليوكوبتر) من طراز ( آباتشي) ببندقيته الأثرية من نوع ( برنو) ، وجيء بهذا الفلاح المزعوم الى شاشة التلفزيون ليسرد ما حصل وكيف أسقط الطائرة ؟ والأكثر سخرية من ذلك أن الفلاح نفسه قد أنكر حدوث هذا الأمر ،وزعم أنه جيء به عنوة ، ولكن متى ؟ هذا هو السؤال ، نعم متى ؟ حصل ذلك بعد سقوط بغداد . إن صدّقت ما قيل فالويل والثبور لمن لا يُصّدق..

## محرقة الجيش العراقي : ( شاهد عِيان)

في حرب الخليج الثانية كانت نيران القصف بالطائرات والصواريخ الموجهة أكثر عنفاً وهولاً من الأولى ، فاضطر كثير من الناس الى الهرب من بغداد، لأن النية كانت مبيته لدى حلفاء الشر اجتياح العراق كله ، واحتلال بغداد .

حدثني أخي الأصغر ، وكان قد شارك في الحربين معاً ، أن وحدة مدفعيته ( الهاون الثقيل) كانت متمركزة على الحدود الفاصلة بين الكويت والسعودية، ولما بدأ الهجوم البري للحلفاء فوجئ القادة العسكريون أثناء الهجوم بصدور أمر من القيادة العسكرية العليا بترك القتال والانسحاب الى داخل الأراضي العراقية .

قال أخي : تركنا مواقعنا ولذنا بالفرار متوجهين صوب الحدود ، ولما أجتزناها امتلأت السماء بطائرات حربية قاصفة ومقاتلة ، وبدأت المحرقة الحقيقية للجيش. قال : كنت أرى بأم عيني أشلاء الجنود والضباط والمراتب تتناثر في الهواء ، فأصابني الذهول ، ثم الرعب . ولم أدرِ ماذا أفعل ؟ فتلاقفني أحد الجنود وقال صارخاً : لنتوجه صوب ( التنّومة) في حدود البصرة مع إيران فإنها أكثر أماناً ، وسحبني بقوة ، وغيّرنا المسير تجاه التنومة، وبذلك نجوت من قتل محقق لا يبقي شيئاً يسيراً من جسدي .

هذه هي ( المحرقة الكبرى ) في التأريخ الحديث ، تجاهلها القتلة وحكام السوء، فخطرت على بالي محرقة اليهود ( الهلوكوست) على أيدي النازيين ومبالغة اليهود وأشياعهم في وصفها ، وقلتُ جهاراً : دم العربي والمسلم لا قيمة له عند المستعمرين والمستعربين من أعراب الخليج ، ولا عند حكامهم الخانعين الأذلاء ، فهل أتي زمان ليكشف حقائق هذه المحرقة على الملأ من الأمم والشعوب ؟ وهل يأتي من يطالب بقوة معاقبة المجرم العاتي الظالم بما يستحقه من العقاب ، ويطالب دول الشر ( بالتعويضات المالية) الكبرى ، كما فعل اليهود ؟ هيهات هيهات أن يأتي مثل هذا الزمان ، وهيهات ثم هيهات أن يأتي من الحكام من يفكر في ذلك فضلاً عن أن يفعل ذلك .

# ليلة الهَرِير ( ليلة سقوط بغداد )

كانت آخر ليلة من حرب الخليج الثانية ، وآخر ليلة من شدة وقعها ، ليلة استمرّ القتل فيها ، ودُمّرت بغداد ، وبُعْثر مَنْ في القبور ، ومَنْ هم خارج القبور ، ليلة تمثلت لنا جميعا نحن المستضعفين في الأرض بما وصفت لنا جهنم ، ليلة ذكرتني بسقوط بغداد على يد ( هولاكو) ، وسقوطها على يد العثمانيين ، وسقوطها على يد الإنكليز ، وقد دخلها الجنرال ( مود) مبتهجاً بالنصر المبين ، وقال كذبته الكبرى : (جئنا محررين لا فاتحين) ، هذا حدث قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى ، أي في العقد الثاني من القرن العشرين . وفي سنة (2003م) ، أي بعد مضي عقود من السنين دخل الأمريكان والإنكليز ومن لفّ لفهم بغداد رافعين الشعار نفسه : ( جئنا محررين لا فاتحين) . ولم تمض على هذه الكلمة سوى بضعة أيام حتى استفاق الناس على خراب بلدهم وتجزئته وتدمير بناه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ومحوه من خريطة العالم .. وانتهى العراق من غير رجعة إلا إذا شاء الله تعالى ، وتمثلت بقوله تعالى : ((وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)) – الإسراء: 16 ، أمر الله مترفيها وعلى رأسهم الحكام بالعدل فأبوا إلا الظلم، فحلّ بها الدمار والهلاك ..

# الفهرست


مقدمة :.....5

السيد محمد الصدر ( الى مثواه الأخير ).....7

العربة الملكية.....9

صافرة الإنذار قبل منتصف الليل..... 11

(جمهورية ) أم ( جنبورية) ؟..... 13

القفز من أعلى البرج ..... 16

دبابات تعبر جسراً ( رومانياً)..... 18

فارس الليل..... 21

حيّة تبتلع رَجُلاً..... 24

لصوص الجبل..... 26

عِفْرِيت في البُسْتان..... 30

مدير الشرطة في ميدان المعركة..... 33

(العارف) وجبل (دَمَاوَنْد)..... 35

ملك يُقْتل غَدْراً..... 39

صورة ( الزعيم ) في القمر ..... 42

صراع الألوان ..... 44

ثَلْج الجبال تحمله البِغال..... 48
حمار يقع في ( خزينة ) الحمّام..... 50
أذان وَسْطَ المعركة..... 53
(العمل الشعبي) و ( قُسّ بن ساعدة) ..... 58
الوقاية خير من العلاج ( مثل يضرب ولا يقاس عليه)..... 61
هزيمة الدبّابات بمسدس رئيس ( الجمهورية)..... 64
الطّرَب وحرب العرب..... 66
المترجمة يغشى عليها..... 71
(منصورية الجَبَل ) و ( رقصة الجَمَل)..... 73
تدريب النّسْوان و ( مِدْفعيّة) أبي حَسّان..... 76
(الشايب) في رئاسة أركان الجيش ..... 79
الموت و ( الرقص على البارود)..... 82
فلاّح يقنص ( طائرة)..... 85
محرقة الجيش العراقي : ( شاهد عِيان)..... 87
ليلة الهَرِير ( ليلة سقوط بغداد )..... 89
الفهرست..... 91